أبو الحسن علي الحسني الندوي

إلى الإسلام من جديد

دار القلم
للطباعة والنشر والتوزيع
دمشق - بيروت

الطّبْعَةُ الرابعَة

١٣٩٩ هـ - ١٩٧٩ م

دار القلم
دمشق - بيروت

دمشق - حلبوني - هاتف ٢٢٩١٧٧ ص. ب ٤٥٢٣

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الطبعة الأولى

الحمد لله رب العالمين ، وصلى الله تعالى على خير خلقه محمد وآله وصحبه أجمعين ، أما بعد :

فهذه المحاضرات التي يجدها القارىء في هذه المجموعة كتبت والقيت في مناسبات مختلفة ، تختلف في الزمان والمكان ، والعنوان والالوان ، وتجتمع في غاية واحدة وهي : ايقاظ الشعور الديني في المسلمين ، واعادة الثقة الى نفوسهم بمركزهم ومبدئهم وغايتهم في الحياة ورسالتهم للعالم البشري ، وتهيئة النفوس لحمل هذه الرسالة وتبوء مركز القيادة والامامة للعالم الحائر الثائر ، وتجديف سفينة الحياة الضائعة بين الملاحين العابثين والركاب النائمين .

وقد خوطبت في هذه المحاضرات والمقالات الامة الاسلامية بصفة عامة ، اذ هي الامة الاخيرة التي أخرجت للناس ، وصاحبة الرسالة الاخيرة التي وجهت الى الناس ، وعنيت بها الامة العربية بصفة خاصة ، فمن أفقها طلعت شمس الاسلام في العصر الاول وأسفر الصبح الصادق ، وقد أسكنها الله في خير مركز في العالم لتوجيه الدعوة الاسلامية ، وازجاء الرسالة الاسلامية الى الامم المتحضرة والعالم المتمدن ، وتبوء مكان القيادة العالمية .

ولما كانت هذه المحاضرات كتبت في ظروف مختلفة كنت أشك في وجود وحدة تربط بينها ، لذلك لما اقترح علي نشر هذه الرسائل في مجموعة ترددت بعض الزمن في اجابة هذا الطلب ، ونظرت فيها من جديد فاذا بوحدة تجمع بينها وغاية تشترك فيها وهي : الدعوة الى الاسلام من جديد ، فقبلت هذا الاقتراح وجمعتها في مجموعة أسميتها « الى الاسلام من جديد » وأدعو الله سبحانه وتعالى أن ينفع بها القراء ، وأن يحرك بها سواكن القلوب ، ويحيي بها موات النفوس ، انه على كل شيء قدير ٠

أبو الحسن علي الحسني الندوي

نزيل القاهرة

١٣٧٠ هـ ١٩٥١ م



مقدمة الطبعة الثانية

الحمد لله ، والصلاة والسلام على رسول الله • أما بعد :

فقد ظهرت الطبعة الاولى لكتاب « الى الاسلام من جديد » في القاهرة سنة ١٣٧٠ هـ ، وكانت طبعة مشوهة ممسوخة ، كثر فيها التصحيف والتحريف ، حتى كان المؤلف نفسه يحار في فهم كثير من الكلمات وردها الى أصلها ، ويظهر أن الناشر لم يعتن بتصحيح الكتاب، واتقان الطباعة وحسن المظهر اعتناءا ما ، وبالرغم من ذلك كان للكتاب انتشار وذيوع في الاوساط الاسلامية ، ونفد الطبع في وقت قريب •

واتفق بعد ذلك أن جمعت مقالاتي في مجاميع مختلفة أخذت بعضها من « الى الاسلام من جديد » ومن هذه المجاميع «العرب والاسلام» و « الطريق الى المدينة » وكتبت بعض مقالات أخرى ، وألقيت بعض محاضرات تدخل في موضوع « الى الاسلام من جديد » وتستحق أن تضم اليها ، يفقدها القارىء في الطبعة الاولى ويجدها في هذه الطبعة ، وبذلك تكونت مجموعة أكثرها قديم ، وقليل منها جديد ، يجمعها اسم واحد ، وغرض واحد وهو « الى الاسلام من جديد » ورغب بعض الاصدقاء في طبعها ونشرها ، فأذنت لهم بذلك شاكرا فضلهم وعنايتهم بنشر الفكر

الاسلامي ، والدعوة الاسلامية ، منتهزا هذه الفرصة لصدور هذا الكتاب من جديد وعلى الله قصد السبيل (*) .

دائرة الشيخ علم الله الحسني رحمه الله

أبو الحسن علي الحسني الندوي

١٣٨٧/١/١ هـ

١٩٦٧/٤/١٠ م

(*) استأذنا سماحة استاذنا الكريم أبي الحسن في أن نحذف من هذه الطبعة الكلمتين التاليتين :

١ ـ العوامل الاساسية لكارثة فلسطين

٢ ـ ارتباط قضية فلسطين بالوعي الاسلامي

وذلك لورودهما في كتابه اللاحق « المسلمون وقضية فلسطين » ولكونهما أليق به ، فأذن لنا بذلك مشكورا . **(الناشر)**

إلى ممثّلي البلاد الإسلاميّة

عرجت على المؤتمر الثقافي[1] العام ، الذي قد اشترك فيه ممثلو البلاد وبعثات الامم ووفود النوادي ، فرأيت معرضا للجنسيات والوطنيات والحضارات ، ورأيتكم أيها السادة المسلمون شامة بين الناس ، لا لانكم تمتازون عن زملاءكم في الشارة واللباس ، بل لانكم تمثلون تلك الامة العظيمة التي كانت ولا تزال شامة بين الامم .

كان العالم قبل ثلاثة عشر قرنا سائرا سيره الطبيعي لا ينكر من أمره شيء ، فكانت القرى والمدن عامرة بالسكان ، وكانت العواصم الكبرى زاخرة العمران ، شامخة البنيان ، وكانت الحرف البشرية ووجوه المعاش في ازدهار وانتشار . كانت الزراعة وكانت التجارة وكانت الصناعة ، فبينما كانت سكة الفلاح في شغل

---

١ ـ المؤتمر الثقافي الآسيوي الذي عقد في دهلي في أبريل ١٩٤٧ م ، واشترك فيه ممثلو : مصر ، ولبنان ، وأفغانستان ، وايران ، وتركيا وأندونيسيا من الاقطار الاسلامية .

ونشاط كانت القوافل التجارية غادية رائحة بين الشرق والغرب ، وكانت الاسواق مشحونة بالمتاجر والبضائع ، وكان الصناعون مكبّين على أعمالهم • وكانت الحكومات والامارات والدول غنية بأموالها ورجالها ، لكل وظيفة رجل كفؤ بل رجال أكفاء ، وكان على وجه الارض كل نوع من البشر ، وكل لون من الحياة ، وكل مظهر من مظاهر المدنيـة ، لا يرى في الحياة الانسانية المادية عوز أو فراغ • ولم تكن في المدينة وظيفة شاغرة يترشح لها مترشح جديد،وكانت كأس الحياة مترعة لاتطلب المزيد •

في هذه الحال ظهرت أمة في جزيرة العرب ووجد نوع جديد من البشر ، وكأني بالامم المعاصرة وهي تتسائل : أي داع الى ظهور أمة جديدة والامم على وجه الارض كثيرة منتشرة ، وما شغل هذه الامة الحديثة ، وما مهمتها في العـالم ؟

وكأني بها تقول : اذا كانت هـذه الامة انمـا بعثت للزراعة وعمارة الارض فقد كان في فلاحـي الطائف ، وأكّاري مدينـة يثرب ، وزراع وادي الفرات والنيـل وربوع الكنج وجمنا ، غنى عن أمة زراعية جـديدة ، فقد أصبحت أراضي هؤلاء الفلاحين وبلادهم جنة تدر لبنا وعسلا ، واذا كان المسلمون انما بعثـوا ليشتغلوا بالزراعة فقط ، فلماذا لم يبعثوا في العراق ، وفي مصر ،

والهند وهي بلاد مخصبة زراعية ، ولماذا كان مبعثهم في واد غير ذي زرع ؟

واذا كانت هذه الامة انما بعثت للتجارة ، فقد كان في يهود يثرب وفي أنباط الشام وفي أقباط مصر وتجار السند كفاية، فقد أحكموا فن التجارة وانتشروا في العالم، واذا كانوا قد بعثوا ليشتغلوا بالتجارة حقا فلماذا لم يبعثوا على طريق القوافل التجارية ، وبقرب من أسواق التجارة الكبرى ؟

واذا كانت هذه الامة انما بعثت للصناعة واعمال اليد ، فقد كان في قيون البلاد المتمدنة ، وأصحاب الصنائع والحرف – وانهم لكثير – غنى وكفاية !

واذا كانت هذه الامة انما بعثت لتنضم الى الحكومات الرومية والايرانية،وتشغل أفرادها وظائف هذه الحكومات ومناصبها ، فقد كان في أهل الشام وفارس غنى وكفاية في الادارة ، وانهم يزاحمون الاجانب بالمناكب ويدفعونهم بالراح .

واذا كانت هذه الامة بعثت لعيش هنيء ، ومطعم شهي، ومشرب مريء ، وملبس وضيء ، ومسكن بهي ، لا لشيء آخر وانما مناها وهمها أن تلقى لبوسا ومطعما ، لم تكن بدعا من الامم ، وكانت منافسة لنا في ميدان الحياة ، فحق

لنا أن نقاتلها وندودها عن مناهلنا ، وقد ضاقت بنا ، فكيف تسع أمة جديدة ؟

واذا كانت هذه الامة انما تحاول ملكا ، أو تريد أن تؤسس دولة ، فيجب أن تصرح بذلك ، وتتخذ له طريق الملوك والفاتحين ، ولا تتظاهر بالدين .

وان الطريق الى كل ذلك ـ من زراعة ، وتجارة ، وصناعة ،ووظيفة ، وحياة بذخ وترف ، وملك وشرف ـ غير الطريق التي سلكتها هذه الامة الجديدة ، فقد سفَّهت أحلامنا ، وعابت آلهتنا ، ونعت على عقائدنا وأخلاقنا وأعمالنا ، ودعت الى دين جديد ، وسارت في سبيل ذلك في شوك وقتاد ، وجاهدت في غير جهاد .

لقد كان الطريق الى الرفاهية أو الحكومة مسلوكة معبدة ، قد سلكتها الامم من قبل ، ومشى عليها الملوك ، وأصحاب الطموح في عصرهم ، فمن حال بينها وبين هذه الطريق ؟ وما الذي عدل بها عن جادة الحياة،وهي معلومة واضحة ؟!

هذا ما أظنه تناجى به ضمير الانسان العاقل في فجر الاسلام ولا ألومه ولا أستغرب هذا السؤال ، فان هذا السؤال طبعي ينبغي أن يهجس في قلب الانسان ، وينطق

به اللسان ، عند كل ناشئة فلماذا لا ينشأ هذا السؤال عند ظهور أمة بأسرها ؟

ما هو الجواب ؟ اذا كان الجواب في الاثبات ، واذا كان مبعث هذه الامة في الحقيقة بشيء مما ذكرناه ولم تكن لهذه الامة مهمة جديدة في العالم ورسالة خاصة الى الامم ، كانت هذه الامة حقا من فضول الامم ، ومن المتطفلين على مائدة العالم .

ولكن الله لم يبعثها لهذا أو لذاك ، والامة والاشخاص لا يبعثون لشيء من هذا ، وانما هي من طبائع البشر ، لا تحتاج الى نبوة نبي ، ولا بعثة أمة ، وجهاد طويل وزلزال عالمي لم يُسبق في التاريخ ، زلزال في المعتقد والاخلاق والميول والنزعات ، وفي نظام الفكر ومنهاج الحياة .

لقد كان مبعثها لغرض سام جدا ، لمهمة غريبة طال عهد الانسانية بها ، وتشاغلت أمم الانبياء عنها حتى نسيتها ، وذلك ما خاطب به الله سبحانه وتعالى هذه الأمة : « كنتم خير أمة أخرجت للناس ، تأمرون بالمعروف ، وتنهون عن المنكر ، وتؤمنون بالله »[1] ! فنبه على أن هذه الامة ليست نابتة نبتت في الارض كأشجار برية أو حشائش شيطانية ، بل انها أمة أخرجت ولامر ما أخرجت ! وأنها لم تظهر لمصلحتها فحسب كسائر الامم ، بل انها أخرجت للناس ، وذلك ما تمتاز به الامة في

---

١ ــ الآية ١١٠ من سورة آل عمران .

التاريخ ، فما من أمة الا وهي وليد أغراضها ، ورهين بطنها وشهواتها، تعيش لاجلها وتموت في سبيلها • أما الامة الاسلامية فهي أمة أخرجت للناس ، تأمر بالمعروف ، وتنهى عن المنكر ، وتؤمن بالله ، وتجاهد في سبيل الله •

ظهرت نواة هذه الامة في مكة ــ قلب جزيرة العرب ــ فقام العقــلاء من قريش ــ وهم الآخــذون بزمام الحياة في البلاد ــ ونثروا كنــانة فكرهم ، وقاســوا الناشــئة الجديدة بمقاييسهم التي عرفوها وألفوها ، ووزنوها في ميزان الانسانية الذي طالما وزنوا فيه أصحاب الطموح ، فوجدوهم خفاف الوزن ، طائشي الكفة ، وذهبوا الى امام الدعوة الاسلامية ، وأول المسلمين في العالم ــ صلى الله عليه وسلم ــ فقال قائلهم :

«انك قد أتيت قومك بأمر عظيم،فرّقت به جماعتهم، وسفّهت به أحلامهم ، وعبت به آلهتم ودينهم ، وكفرت به من مضى من آبائهم ، فاسمع مني أعرض عليك أمورا تنظر فيها ، لعلك تقبل منها بعضها » •

فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : « قل يا أبا الوليد أسمع » •

قال : « يا بن أخي ، ان كنت انما تريد بما جئت به من هذا الامر مالا ، جمعنا لك من أموالنا حتــى تكون أكثرنا مالا • وان كنت انما تريد شرفا ، سودناك علينا

حتى لا نقطع أمرا دونك • وان كنت انما تريد ملكا ملكناك علينا [1] » •

سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم كل ذلك في هدوء وتأن ، ثم رفضه في غير شك وتأخير، ولم يكن هذا العرض من قريش على شخص الرسول صلى الله عليه وسلم فحسب، بل كان على هذه الامة التي يمثلها ويقودها • ولم يكن رفض رسول الله صلى الله عليه وسلم لما عرضت قريش ، رفضا عن نفسه الكريمة فقط ، بل كان رفضا عن أمته الى آخر الابد •

اقتنعت قريش بهذه المحاورة ، ويئست من مساومة هذه الامة ، ولم تعد تعرض على رسول الله صلى الله عليه وسلم مباشرة وعلى هذه الامة بواسطة ما عرضته من قبل، وقطعت منها أملها •

وكان بعد ذلك صراع مستمر ، ونزاع طويل ، ولم يكن نزاعا في أغراض المادة وشهوات البطن ، والاستئثار بموارد الرزق ، والتغلب على الاسواق ، بل كان نزاعا بين الاسلام والجاهلية بمعنى الكلمتين ، نزاعا بين حياة العبودية والانقياد لله تعالى ورسوله ، وبين الحياة الحرة المطلقة التي لا تعرف قيدا أو لا تخشى معادا ولا حسابا •

---

١ ــ البداية والنهاية لابن كثير •

وكان من نتيجة ذلك معركة بدر الحاسمة ، وقد قاد النبي صلى الله عليه وسلم الى ساحة القتال جيشا لا يزيد عدد المقاتلين فيه على ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلا،والجيش المنافس فيه ألف محارب ، وكان النبي صلى الله عليه وسلم يعلم يقينا أن لو وكل المسلمون الى أنفسهم وقوتهم المادية ، فالنتيجة معلومة واضحة ، نتيجة كل قليل ضعيف أمام قوي كثير العدد ·

فزع الرسول الى الله تعالى في انابة نبي ، والحاح عبد ، ودعاء مضطر ، وشفع لهذه العصابة في كلمات صريحة واضحة ، نيرة خالدة ، هي خير تعريف لهذه الامة ، وبيان لمهمتها وغرضها الذي خلقت له ·

لم يقل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لو هلكت هذه العصابة ، وكانت فريسة للعدو ، أقفرت المدينة ، وأوحشت أسواقها ، وكسدت التجارة ، وبطلت الزراعة، أو تعطل شغل من أشغال الحياة ، أو وقفت ادارة الحكومات · لم يقل رسول الله صلى الله عليه وسلم شيئا من ذلك ، لان شيئا منها لم يتوقف على المسلمين ولم يقم بهم ، بل كان قبل وجود المسلمين ولا يزال في غنى عنهم، ولكن الرسول صلى الله عليه وسلم ذكر شيئا بعث المسلمون لاجله ، وقام بالمسلمين وحدهم ، فقال : « اللهم ان تهلك هذه العصابة لن تُعبد » ·

أجاب الله دعاء الرسول صلى الله عليه وسلم ، وقضى بانتصار المسلمين على عدوهم ، وبقائهم ، فكأنما كان بقاء المسلمين مشروطا بقيام حياة العبودية بهم ، وقيامهم بها ، فلو انقطعت الصلة بينهم وبين العبادة ورواجها وازدهارها في العالم ، انقطعت الصلة بينهم وبين الحياة ولم يبق على الله لهم حق وذمة ، وأصبحوا كسائر الامم خاضعين لنواميس الحياة وسنن الكون ، بل كانوا أشد جريمة ، وأقل قيمة من الامم الاخرى ، اذ لم يشترط لبقائها وحياتها مثل ما اشترط لهم ، وكان كما أخبر الله تعالى : « قل ما يعبؤ بكم ربي لولا دعائكم ، فقد كذبتم فسوف يكون لزاما [1] » .

وقد حافظ المسلمون على هذا الشرط ، وبروا بهذا العهد، وتذكروا أنهم انما نُصروا على عدوهم – وقد كان يأتي عليهم ويستأصلهم في ساحة بدر – وتركوا على ظهر الارض لان عبادة الله منوطة بهم على أرض الله .

بهذه الرسالة انبثوا في العالم ، وحملوها الى الملوك والسوقة والامم، وفي سبيل ذلك هاجروا وجاهدوا، ولاجل ذلك حاربوا وعاهدوا، ولم يزالوا يعتقدون أنهم مبعثون من الله الى الامم ، وحاملو راية الاسلام في العالم .

أرسل سعد قبل القادسية ربعي بن عامر الى رستم – قائد

---

١ – الآية ٧٧ من سورة الفرقان .

الجيوش الفارسية:وأميرهم ـ فدخل عليه وقد زينوا مجلسه بالنمارق المذهبة ، والزرابي، وأظهروا اليواقيت واللآلي الثمينة ، والزينة العظيمة ، وعليه تاجه وغير ذلك من الامتعة الثمينة ، وقد جلس على سرير من ذهب ، ودخل ربعي بثياب صفيقة ، وسيف وترس ، وفرس قصيرة، ولم يزل راكبها حتى داس بها على طرف البساط، ثم نزل وربطها ببعض تلك الوسائد، وأقبل وعليه سلاحه ودرعه ، وبيضته على رأسه ، فقالوا له :

« ضع سلاحك » فقال:« اني لم آتكم وانما جئتكم حين دعوتموني، فان تركتموني هكذا ، والا رجعت » ، فقال رستم : « ائذنوا له » فأقبل يتوكأ على رمحه فوق النمارق ، فخرّق عامتها ، فقالوا له : « ما جاء بكم ؟ » فقال : « الله ابتعثنا لنخرج من شاء من عبادة العباد الى عبادة الله ، ومن ضيق الدنيا الى سعتها ، ومن جور الاديان الى عدل الاسلام ، فأرسلنا بدينه الى خلقه لندعوهم ، فمن قبل ذلك قبلنا منه ورجعنا عنه ، ومن أبى قاتلناه أبدا ، حتى نفضي الى موعود الله » قالوا : « وما موعود الله » ؟ قال : « الجنة لمن مات على قتال من أبى ، والظفر لمن بقي [1] ».

أباح الله للمسلمين الطيبات،وفسح لهم فيطرق الكسب ووجوه المعاش ، ولم يضيق عليهم في ذلك ، فقال : « قل : من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق، قل : هي للذين آمنوا في الحياة الدنيا خالصة يوم

---

١ ـ البداية والنهاية لابن كثير .

القيامة » [1] .

وقال : « فـــاذا قضيت الصــلاة فانتشروا في الارض وابتغوا من فضل الله » [2] .

ولكن الله لم يبعثهم لذلك أمة ، ولم يرضه لهم غاية ومهمة ، بل خلقهم للسعي للآخرة ، وخلق أسباب الحياة لهم ، « ان الدنيا خلقت لكم ، وانكم خلقتم للآخرة » وجعل الحياة وأسبابها خاضعة لمهمتهم التي بعثوا لاجلها ، فاذا زاحمتهم في سبيل مهمتهم أو غلبتهم عليها ، رفضوها واذا تلكأ المسلمون في ذلك عاتبهم الله عتابا شديدا وقال :

« قل ان كان آباؤكم ، وأبناؤكم ، واخوانكم ، وأزواجــكم ، وعشيرتكم ، وأموال اقترفتموها ، وتجارة تخشون كسادها ، ومساكن ترضونها ، أحب اليكم من الله ورسوله وجهاد في سبيله ، فتربصوا حتى يأتي الله بأمره ، والله لا يهدي القوم الفاسقين » [3] .

أراد الانصـــار رضي الله عنهم أن يتفرغوا لاصـــلاح أموالهم ، لايام ، اكتفاء بأنصار الاسلام ، فعاتبهم الله على ذلك وأنزل : « ولا تلقوا بأيديكم الى التهلكة » [4] .

قال سيدنا أبو أيوب الانصاري رضي الله عنه : « انما نزلت فينا معشر الانصار ، انا لما أعز الله دينه وكثر ناصروه قلنا في ما بيننا : لو أقبلنا على أموالنا فأصلحناها ، فأنزل هذه الآية » [5] .

---

١ ــ الآية ٣٢ من سورة الاعراف .
٢ ــ الآية ١٠ من سورة الجمعة .
٣ ــ الآية ٢٤ من سورة التوبة .
٤ ــ الآية ١٩٥ من سورة البقرة .
٥ ــ رواه أبو داود في سننه .

ولكن مع الاسف الشديد ، قد تشاغل المسلمون اليوم بالدنيا كالامم الجاهلية وسَعَوا وراءها ، وعقدوا حياتهم بها ، فاذا أشرفتم على مدنهم وبلادهم من مرقب عال لم تميزوا بينهم وبين أفراد أمة جاهلية ، سعي وراء المادة في غير اقتصاد ، واكتساب من غير احتساب ، سهر في غير طاعة ، وعمل في غير نية، وتجارة في لهو عن ذكر الله ، وحرفة في جهل عن دين الله ، ووظيفة في الاخلاص لغير الله ، وحكومة في مشاقة الله ، شغل في ضلالة ، وقعود في بطالة ، وحياة في غفلة وجهالة .

هل اذا اطلعتم ـ يا سادتي ـ على بلاد اسلامية ، ورأيتم هذه الامة في غداوتها وروحاتها الى الاسواق والادارات ، ومصالح الحكومة ، عرفتم أنها أمة خلقت لشيء آخر ، و بعثت لغرض آخر ، أسمى من هذه الاغراض التي يسعى لها الكافر والمؤمن .

ان هذا الاسلوب من الحياة لحجة ظاهرة لاهل الجاهلية على المسلمين ، فلو نطقوا لقالوا : « ما ذنبنا ، أيها المسلمون ! اذ عرضنا على نبيكم المال ، والسيادة ، والملك ، فأبى ورفض كل ذلك ؟! ألا نراكم تسعون اليوم وراء الذي رفضه نبيكم بالامس ، كأنما خلقتم لاجله ؟ فأي الفريقين أشد ذنبا ، أمن عرض على محمد صلى الله عليه وسلم المال والسيادة والملك ، تفاديا من الخلاف والنزاع ، فأبى ورفض ، أو من تهافت على ما رفضه سيده تهافت الظمآن على الماء ، والفراش على النور ؟ .

واذا كنتم اليوم لا يهمكم الا المال ، أو الحياة ، أو

الشرف ، أو حكم على قطعة أرض ، فلماذا تظاهرتم بالامس بالدين ، وأقمتم الدنيا وأقعدتموها لاجله ، وكدرتم علينا صفو العيش ، لقد كنتم وكنا في غنى عن هذه الحروب الطاحنة التي أيتمت البنين ، وأيئمت النساء ، وأجلت الناس عن الاوطان ! .

أعيدوا الينا اذا تلك الدماء التي أريقت في ساحة بدر وأحد ، وخيبر وحنين ، واليرموك والقادسية ، وأعيدوا الينا تلك النفوس التي قتلت باسم الدين ، وأعيدوا الينا تلك الايام التي كنا نعيش فيها في وئام وهدوء ، لانعرف فيها الا الاكل والشرب وقضاء مآرب النفس !

وماذا يكون جوابنا لو تعرض أحد من أخلافهم الأحياء وقال : « ما غَناؤكم أيها المسلمون ؟! لقد ساهمتمونا في أسباب الحياة ، وخلقتم لنا فوق ذلك مشكلات كثيرة في الحياة السياسية والاجتماعية ، ولا نراكم تسدون عوزا ، أو تصلحون خللا ، وتلمون شعثا ، أو تقيمون زيفا في الحياة » .

عفوا أيها القراء ، وسماحا أيها الكرام ، فقد طال العتاب ، وقديما قال الشاعر العربي :

وفي العتاب حياة بين أقوام

من المعلوم أن حياة الامم بالرسالة والدعوة ، وان الامة التي لا تحمل رسالة ولا تستصحب دعوة ، حياتها مصطنعة غير طبعية ، وانها

كورقة انفصلت من شجرتها ، فلا يمكن أن تحيا بسقي أو ري : « فأما الزبد فيذهب جفاء ، وأما ما ينفع الناس فيمكث في الارض » [1] .

اننا – أيها القراء – أمة الحاضر وأمة المستقبل ، قد كتب لنا الخلود والنصر، لاننا أصحاب دعوة ورسالة نبوية، وهي الرسالة الابدية التي قضى الله بخلودها وظهورها . فلسنا تحت سيطرة المادة وحكم الزمان ، بشرط أن نقوم بدعوتنا ، ولنستقل برسالتنا ، ونعود أمة دعوة نبوية كما بدأنا ، دعوة في ما بيننا معشر المسلمين ، ودعوة في غيرنا من الاجانب في الدين .

لقد تخلفنا عن الامم المعاصرة في العلوم الطبيعية ، والاسباب الحربية ، وفي الاخذ بأسباب الرقي المادي بعدة قرون ، وقد كانت المسابقة بيننا وبينهم كمسابقة الارنب والسلحفاة ، الا أن الارنب كان ساهرا مع خفته وسرعته ، والسلحفاة نائمة رغم بطئها وثقلها ، فلو حاربنا هذه الامم اليوم لاستغرق ذلك قرونا ، ثم كانت المقارنة بحساب دقيق ، فاذا أفاق العدو وسبقنا بشعرة في القوة المادية والعدد الحربية رجحت كفته ، لان المادة عمياء وهي من القساوة والحياد التام بمكان لا تفرق فيه بين المحق والمبطل والشريف والوضيع .

ولكن الدعوة والرسالة – وهي الروح التي تقهر المادة وتسخّر الاسباب وتستنزل النصر – تأتي بخوارق ومعجزات ، وطالما قهرت القاهر وفتحت الغالب ، وطالما خضعت الحكومات القاهرة ، ودانت الملوك الجبابرة بقوة الدعوة والرسالة للمماليك والصعاليك ، وقد جربت ذلك هذه الامة مرتين بوضوح في التاريخ :

مرة : لما خرج العرب من جزيرتهم الى البلاد الرومية والفارسية في ثياب صفيقة مرقعة ، وفي نعال وضيعة مخصوفة ،يحملون سيوفا بالية الاجفان ، رثة الحمائل ، على خيل قصيرة ، متقطعة الغرز ، وسرعان ما

---

١ – الآية ١٧ من سورة الرعد .

قهرت دعوتهم ورسالتهم وحياتهم الامم الرومية والفارسية ، التي كانت كدمى كُسيت حللا فاخرة ، وأعوادا أسندت الى الجدار ، لحرمانها من رسالة ، وقعودها عن دعوة ، وكان الانتصار في الاخير للرســـالة على النظام ، وللروح على المادة ، وللمعنى على الظاهر ٠

ومرة ثانية : لما قهر التتر ـ ذلـك الجراد المنتشر ـ العـــالم الاسلامي من أقصاه الى أقصاه ، وخضدوا شوكة المسلمين ، فلم تقم لهم قائمة ، ولم يقف في وجههم واقف ، وكاد المسلمون يصبحون أثرا بعد عين، واستولى اليأس على قلوبهم حتى كان من الامثال السائرة : « اذا قيل لك أن التتر انهزموا، فلا تصدق » هنالك فعلت الدعوة الاسلامية فعلها، ونفذت فيهم ٠ فاذا القاهر يصبح مقهورا ، واذا الفاتح مفتوح لدين المفتوحين ، واذا التتر يتلفظون بكلمة الاسلام ، ويدينون برسالة محمد عليه الصلاة والسلام ، ويصبحون أمة اسلامية ٠

وان الرسالة الاسلامية لتأتي بالمعجزات اليوم ، وتقهر الامم طوعا ـ لا كرها ـ بسلطانها الروحي ونفوذها العجيب ٠

ان آباءكم ـ أيها السادة المسلمون ـ قـــد انتشروا في عواصم الجاهلية الاولى ، ومراكزها الكبرى ، يقولون : « الله ابتعثنا لنخرج من شاء من عبادة العباد الى عبادة الله ، ومن ضيق الدنيا الى سعتها ، ومن جور الاديان الى عدل الاسلام » وخلصوا الامة الرومية من عبادة المسيح والصليب والاحبار والرهبان والملوك ، وخلصوا الامة الفارسية من عبادة النار وعبودية البيت الكياني ، والامة الطورانية من عبادة الذئب الابيض ، والامة الهندية من عبادة البقر ، وأخرجوها الى عبادة الله وحده ، وأخرجوها فعلا من ضيق الدنيا الى سعتها ، ومن جور الاديان الى عدل الاسلام ، والعالم ينتظر منذ زمان ، رسل المسلمين ينتشرون في عواصم الجاهلية الثانية ، يهتفون : « الله ابتعثنا لنخرج العباد من عبادة المادة والبطن ، الى عبادة الله وحده ، ومن ضيق عالم التنافس والاثرة والجشع المادي الى سعة عالم القناعة والايثار والزهد ، ونعيم

الروح وطمأنينة القلب ، ومن جور النظم السياسية والاجتماعية ، الى عدل الاسلام » •

هذه هي الدعوة التي تهيب بكم يا رجال العالم الاسلامي ، وهذه الانسانية البائسة تستصرخكم وتستغيثكم على أعدائها • وليس العالم اليوم بأقل ظمأ وأقل فاقة الى الدعوة الاسلامية الصحيحة منه بالامس ، وانه لا يختلف عما كان عليه في القرن السادس المسيحي ، فهو غني اليوم في كل ناحية من نواحي الحياة ، وفي جميع الحرف والصناعات ، وقد ضاق بالامم والحكومات ، وطفح بالاعلام والرايات ، وفاض بالحركات والدعوات ، وضجر بطغيان الاهواء والنزعات ، وثورة الاغراض والشهوات • فهو في ذلك لا يقبل علاوة ، ولا يسمح بزيادة ، فاذا لم يكن المسلمون الا أمة من الامم ليست لهم دعوة الى الله ، ولا رسالة للانسانية المحتضرة ، ولم يكن لهم هم الا أنفسهم وبطونهم ، لم يكن هنالك ما يبرر تاريخهم الماضي الذي افتتح بالدعوة الدينية والجهاد في سبيلها ، ولا يبرر وجودهم في هذا العصر ، فانما نُصِرُوا واستبقوا بشريطة القيام بالعبادة والدعوة اليها •

والدعوة الى الله هي الناحية الوحيدة التي لا تزال فارغة في خارطة العالم ، لا تشغلها أمة ولا دعوة ، فاذا عمرها المسلمون أحسنوا الى الانسانية والى أنفسهم ، وأمسكوا هذا العالم المتمدن الذي قد كاد يهوي في الهاوية •



مَعْقِل الإنسانيّة

كان وجود الامة الاسلامية في كل ناحية من نواحي العالم رمزا لحقيقة غير الحقائق المادية واللذات الجسدية، وكان كل فرد من أفراد هذه الامة يعلن للعالم ـ وليدا أو ميتا ـ أن وراء القوى المادية قوة سماوية ووراء الحياة الفانية حياة خالدة ، فاذا ولد وليد صرخ في أذنه بهذه الحقيقة ، واذا مات فارق الدنيا بهذه الشهادة •

اذا ساد على هذا العالم جمود أشبه بالموت ، وغاص الناس في بحر الحياة الى أذقانهم ، واختفت كل حقيقة وراء الحقائق المادية ، اذا بصوت يدوي « حيّ على الصلاة ، حيّ على الفلاح » فينكسر طلسم العالم المادي ، وتتجلى الحقيقة الروحية ، ويجري الناس وراء هذا الصوت ، وقد نفضوا أيديهم من أشغالهم وخروا أمام ربهم • واذا ضرب الليل رواقه ، ومد النوم أطنابه على هذا العالم الحي الصاخب ، فاذا هو مقبرة واسعة ليس بها داع ولا مجيب ، اذا بمعين الحياة ينصب في وادي

الموت ، فينبلج الصبح الصادق في الليل الغاسق ، وتتلقى الانسانية الناعسة من مؤذن الفجر درسا في الحياة والنشاط والكدح والكفاح ، والشكر والعبادة • واذا اعتز أحد بقوته وسلطانه ، وزها بكثرة ملئه واعوانه ، وقال بلسان المقال أو بلسان الحال : « أنا ربكم الاعلى » أو « مالكم من اله غيري » قام رجل متواضع على منصة عالية في كل بقعة من بقاع مملكته ، أو نفوذه ، ونادى « الله أكبر الله أكبر » فينادي بحكم الله في مملكته ويرغم أنف الاله الكاذب في سلطانه •

اذا هاجرت جالية مسلمة من رقعة من رقاع هذه الارض ، أو أجليت منها ، لم يصب نظام المعيشة بشلل أو خلل،وظل الناس يتكسبون ويأكلون كما تأكل الانعام، وظلت رحى الحياة تدور دورها الطبيعي ، ولكن روح ذلك المجتمع الانساني تفارق جسده فيصير جثة هامدة لا حياة فيها ولا روح ، كذلك كان في اسبانيا ، وكذلك كان في كل بقعة انسحب منها المسلمون أو أجلاهم عنها أهلها ، وهل اسبانيا الحاضرة الا مدنية بلا روح ، وحياة بلا مبدأ ، وأمة بغير رسالة للعالم !•

ان المؤمن وحده هو صاحب عاطفة في هيكل العقل والمادة الذي لا يعبد فيه الا النفس والبطن ، وهل الحياة الا بالعاطفة ؟ وهل الدنيا اذا ماتت العاطفة ، وغلب العقل ، وحكمت المادة ، الا سوق تجارة أو

ميدان حرب ؟ فاذا ثار المؤمن للحق كسر طلاسم العقل ، وفك سلاسل الكون ، وحطم أصنام المادة ، وأملى على العالم ارادة الله ، فاذا هو مطيع خاضع واذا هو متواضع خاشع ، قلب تيار الحياة وغير وجه التاريخ ، وأرغم الكون على أن يسير سيرته .

حالت دجلة في سبيل المسلمين دون المدائن ، وكانت السنة كثيرة المدود ، ودجلة تقذف بالزبد ، فجمع سعد الناس فحمد الله وأثنى عليه وقال : « ألا اني قد عزمت على قطع هذا البحر اليهم » فقالوا جميعا : « عزم الله لنا ولك على الرشد ، فافعل » فندب الناس الى العبور ، واذن لهم في الاقتحام ، وقال : « قولوا : نستعين بالله ونتوكل عليه ، حسبنا الله ونعم الوكيل ، والله لينصرن الله وليه ، وليظهرن دينه ، وليهزمن عدوه ، ولا قوة الا بالله العلي العظيم » ، وتلاحق الناس في دجلة ، وهم يتحدثون كما يتحدثون في البر ، وطبقوا دجلة حتى ما يرى من الشاطىء شيء (١) .

نزل طارق بالاندلس ، والبحر وراءه والعدو أمامه ، والمستقبل رهيب ، والطريق مظلم ، والارض كفة حابل ، والعدد زهيد والمدد بعيد ، فهزىء بأشباح المادة المخيفة ، وعاند العقل ، وأمر باحراق السفن التي ترجع به الى بلاده (٢) ، وعزم على الفتح وأيقن بالنصر ، فهزم العدو ، وملك الجزيرة الخضراء للمسلمين .

أراد عقبة بن نافع أن يتخذ مدينة في افريقية ، يكون بها عسكر المسلمين وأهلهم وأموالهم ليأمنوا من ثورة

---

١ ــ الكامل لابن الاثير (ج ٣ ص ١٩٨) .
٢ ــ نفح الطيب (ج ١ ص ١٣١) .

تكون من أهل البلاد ، فقصد موضع القيروان ، وكانت وحلة مشتبكة، بها من أنواع الحيوان من السباع والحيات وغير ذلك ، فدعا الله وكان مستجاب الدعوة ثم نادى : أيتها الحيات والسباع ، انّا أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ارحلوا عنا ، فانا نازلون ، ومن وجدناه بعد ذلك قتلناه، فنظر الناس ذلك اليوم الى الدواب تحمل أولادها ، وتنتقل فرآه قبيل كثير من البربر فأسلموا[1] .

خرج محمد بن القاسم ـ وهو ابن سبع عشرة سنة ـ لغزو الهند ، ومعه حفنة من الناس ، والبحار حائلة ، وبلاد العدو واسعة الاطراف وعرة المسالك لم يجربها العرب ، فهزىء بالمعوقين والمرهبين ، وغلب الايمان القوة وغلب الروح المادة ، واذا بالهند ـ من السند الى الملتان ـ خاضعة للمسلمين .

ان العالم كله مدينة الاوهام ، والمؤمن وحده هو صاحب يقين لا يزول ، وعقيدة لا تتحول ، وهو في يقينه في عالم الاوهام ، كمصباح الراهب في الغابة المظلمة ، ومنارة النور في بحر الظلمات ، والجزيرة التي يأوي اليها اليائسون ، والطود الذي لا تزحزحه السيول ، ولا تزلزله العواصف وقد يتمسك بيقينه ، ولا يوافقه على ذلك أحد ، ولا يصدقه أحد ، فلا تخور عزيمته ، ولا تلين عريكته ، ولا يرتاب ولا يتلدد ، والناس بين معارض ومنتقد ، ومطيع كاره ، أو مخالف معتزل ،

---

١ ـ الكامل لابن الاثير (ج ٣ ص ٣٣٤) .

وهو لا يحفل بذلك ، ويمضي كالسيف ، حتى يهزم يقينه ألف جند من الشك ، وينقشع سحاب الاوهام ، ويظهر يقينه مثل فلق الصبح .

استعمل النبي صلى الله عليه وسلم أسامة بن زيد على جيش وأمره بالتوجه الى الشام ، وتوفي النبي صلى الله عليه وسلم ولم يسر الجيش ، وارتدت العرب اما عامة أو خاصة من كل قبيلة ، وظهر النفاق واشرأبت يهود والنصرانية ، وبقي المسلمون كالغنم في الليلة المطيرة ، لفقد نبيهم وقلتهم وكثرة عدوهم، فقال الناس لابي بكر: ان هؤلاء ــ يعنون جيش أسامة ــ جند المسلمين ، والعرب على ما ترى فقد انتقضت بك ، فلا ينبغي أن تفرق جماعة المسلمين عنك ، فقال ابو بكر : « والذي نفسي بيده ، لو ظننت أن السباع تختطفني ، لانفذت جيش أسامة ، كما أمر النبي صلى الله عليه وسلم » فخاطب الناس وأمرهم بالتجهز للغزو ، وأن يخرج كل من هو من جيش أسامة الى معسكره بالجرف ، فخرجوا كما آمرهم ، وحبس أبو بكر من بقي من تلك القبائل التي كانت لهم الهجرة في ديارهم ، فصاروا مسالح حول قبائلهم وهم قليل ، فلما خرج الجيش الى معسكرهم بالجرف وتكاملوا ، أرسل أسامة عمر بن الخطاب وكان معه في جيشه الى أبي بكر ، يستأذنه أن يرجع بالناس ، وقال : ان معي وجوه الناس وجلدتهم ، ولا آمن على خليفة رسول الله وحرم رسول الله

والمسلمين أن يتخطفهم المشركون ، وقال من مع أسامة من الانصار لعمر بن الخطاب : ان أبا بكر خليفة رسول الله ، ألا فامض فأبلغه عنا ، واطلب اليه أن يولي أمرنا أقدم سنا من أسامة ، فخرج عمر بأمر أسامة الى أبي بكر ، فأخبره بما قال أسامة ، فقال : لو خطفتني الكلاب والذئاب لانفذته كما أمر به رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولا أرد قضاء قضى به رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولو لم يبق في القرى غيري لانفذته ، قال عمر : فان الانصار تطلب رجلا أقدم سنا من أسامة ، فوثب أبو بكر ـ وكان جالسا ـ وأخذ بلحية عمر وقال : ثكلتك أمك يا ابن الخطاب ، استعمله رسول الله صلى الله عليه وسلم وتأمرني أن أعزله ؟!

وسار أسامة ، وأوقع بناس من قبائل قضاعة التي ارتدت ، وغنم وعاد ، وكانت غيبته أربعين يوما ، وقيل سبعين ، وكان انفاذ جيش أسامة أعظم الامور نفعا للمسلمين ، فان العرب قالوا : لو لم يكن بهم قوة لما أرسلوا هذا الجيش ، فكفوا عن كثير مما كانوا يريدون أن يفعلوه .[1]

ان العالم سوق لا رحمة فيها ولا شفقة ، ولا مسامحة فيها ولا

---

١ ـ الكامل لابن الاثير (ج ٣ ص ١٣٧ ـ ١٣٨) .

كرم ، والمؤمن وحده هو الذي يؤثر على نفسه ، ولو كان به خصاصة ، ويسامح مدينه وعدوه ، ويتنازل عن ملك واسع وعرض قريب ، طمعا في الاجر ، ومحافظة على الكرم .

تغلب ملك كافر على دولة اسلامية في بلاد مالوه بالهند سنة ثلاث وعشرين وتسع مئة ، وخـرج محمود شـاه الخلجي صاحب مالوه من بلاده هاربا عنه الى كجرات ، فنهض السلطان مظفر الحليم ـ وكان الخلجي لا يزال على القلعة ـ وشرع في المحاصرة وجد في أسباب الفتح ، ودخل القلعة عنوة ، ووضع السيف فيهم ، وكان آخر أمرهم أنهم دخلوا مساكنهم، وغلقوا الابواب، وأشعلوها نارا واحترقوا وأهليهم ، وبلغ عدد القتلى من الكفرة تسعة عشر الفا ، سوى من أغلق بابه واحترق ، وسوى أتباعهم ، فلما وصل السلطان الى دار سلطنة الخلجي التفت اليه ، وهنأه بالفتح ، ودعا بالبركة في ملكه ، وقال له : بسم الله ادخلوها بسلام آمنين ، وعطف عنانه خارجا من القلعة الى القباب ، وهيـأ الخلجي الضيافة ، ونزل الى مظفر شاه السلطان وسأله التشريف بالطلوع، فأجابه، فلما فرغ من الضيافة دخل به في الابنية التي هي من آثار أبيه وجده ، فأعجب بها وترحم عليهم ، ثم جلسا في جانب منه ، وشكره الخلجي ، وقـال : الحمد لله الـذي أراني بهمتك ما كنت أتمناه بأعدائي ، ولم يبق لي الآن أرب

في شيء من الدنيا ، والسلطان أولى بالملك مني ، وما كان له فهو لي ، فأسألك قبول ذلك ، وللسلطان أن يقيم به من شاء ، فالتفت السلطان اليه ، وقال له : ان أول خطوة خطوتها الى الجهة كانت لله تعالى، والثانية كانت لنصرتك، وقد نلتها فالله يبارك لك فيه ، ويعينك عليه ، وسأله أركان دولته ، أن يستأثر بدولة الخلجي ، فالتفت الى محمود ، وقال له : احفظ باب القلعة برجال لا يدَعو أحدا يدخلها بعد نزولي، حتى من ينتسب الي، وانصرف الى بلاده (١) .

العالم بلاد لا يعيش فيها الا من يحمل في جنبه قلبا كأنما قُد من حجر ، لا يعرف الحنان والرحمة ، ولا يعرف معنى الحب والايثار، والمؤمن وحده هو الذي يحمل في جنبه قلبا يفيض حنانا ورحمة للبشر ، ويجمع بين الرحمة والشدة ، والصلابة والرقة ، وشكيمة الاسد وحنان الام ، تخلق بأخلاق الله فجمع بين الرأفة والعزة ، والجمال والجلال ، وتخلق بأخلاق الرسول صلى الله عليه وسلم فلا يغضب لنفسه ، حتى اذا تُعدي الحق لم يقم لغضبه شيء ، فبينما تراه في ساحة الجهاد كأنه نار في حطب ، أو منجل في حقل ، ليس له عاطفة ولا قلب ، اذا به تراه في الصلاة تهمل عيناه ، ويغلي صدره كالمرجل ، وتراه يرق للضعيف ، ويحنو على الارملة واليتيم ، قد جمع بين حلاوة العسل ومرارة الحنظل، الا أن الاولى له سجية وطبيعة ، والثانية له وسيلة وذريعة ، فهو ينشد بلسان الحال : واني لحلو تعتريني مرارة (٢) ، لا يدع السماحة والكرم

---

١ ــ نزهة الخواطر للعلامة عبد الحي الحسني ج ٤ .

٢ ــ شطر بيت لسيدنا حسان بن ثابت .

حتى مع العدو ، ولا يترك التمسك بالاخلاق العالية حتى في ساحة القتـــال .

هذا صلاح الدين الذي سار مثلا في شدته وجلادته ، تستغيث به امرأة اختطف ولدها ، فهي تبكي بكاء الثكلى، فيرق لها بطل حطين ، ويطوف بها على القبائل والمنازل ، حتى تعرف ابنها ، وتضمه الى صدرها (١) ، ويهدي الى قرنه ، وأعدى عدوه في العالم « رتشـــارد » الثلج . والفواكه في مرضه (٢) .

الناس من خوف الموت في الموت ، وأشد من الموت ، يعدون هذه الحياة رأس مالهم ومنتهى آمالهم ، فليس من الغريب أن يود أحدهم لو يعمر ألف سنة ، حتى اذا جاءه الموت ، خرج من الدنيا حزينا متلهفا على ما يفارقه ، كارها مستبشعا لما يستقبله .

أما المؤمن فهو دائم الحنين الى ربه ، شديد الشوق الى جنته ، لا يبالي أوقع عليه الموت أم على الموت وقع ، يستقبل الموت باسم الثغر جذل القلب ، فرحا مستبشرا كأنما هو خارج من السجن ، أو عائد الى الوطن .

لما طعن جبار بن سلمى عامر بن فهيرة يوم بئر معونة فأنفذه ، قال عامر : « فزت ورب الكعبة » (٣) ولما ضرب ابن ملجـم علي بن أبـي طالب ، قـال : « فزت ورب الكعبة » (٤) .

---

١ و ٢ ـ الفتح القسي في الفتح القدسي : لعماد الدين الكاتب .
٣ ـ طبقات ابن سعد .
٤ ـ كتاب المتفجعين لمحمود بن محمد بن الفضل .

قام أبو عبيدة في الناس في طاعون عمواس ، فقال : أيها الناس ، ان هذا الوجع رحمة ربكم ، ودعوة نبيكم ، وموت الصالحين قبلكم ، وان أبا عبيدة سأل الله أن يقسم له منه حظه ، فطعن فمات ، واستخلف على الناس معاذ بن جبل ، فقام خطيبا بعده ، فقال : أيها الناس ، ان هذا الوجع رحمة ربكم،ودعوة نبيكم، وموت الصالحين قبلكم، وان معاذا يسأل الله أن يقيم لآل معاذ حظهم ، فطعن ابنه عبد الرحمن فمات ، ثم قام فدعا به لنفسه ، فطعن في راحته ، فلقد كان يقبلها ، ثم يقول ، ما أحب أن لي بما فيك شيئا من الدنيا (١) .

وحضر بلالا الوفاة ، فقالت امرأته : واحزناه ، قال: « بل واطرباه ، غدا نلقى الاحبة محمدا وحزبه » (٢) وكذلك روي عن عمار ، أنه كان قال ذلك عند وفاته (٣) .

المؤمن هو الذي يستطيع أن يفضل الفقر على الغنى ، والآخرة على الدنيا ، والنسيئة على النقد الحاضر ، والغيب على الشهود ، والدين على الحياة في كل دور من أدوار التاريخ ، مهما بلغت المادة أوجها .

ليس لقطر من الاقطار ان يمن على الاسلام بأنه فسح له في أرضه، وانما الفضل والمنة للاسلام على كل قطر ، فقد ألقى عليه درسا في

---

١ ـ الكامل لابن الاثير (ج ٣ ص ٣١٦) .
٢ ـ الغزالي في الاحياء عن ابن أبي الدنيا .
٣ ـ الطبراني .

التوحيد الذي لا يشوبه شرك، وحب الانسانية العامة واحترامها ، ووسع أفق خياله فصار يرى للحياة معنى غير معنى ، وللانسانية مستوى أرفع من مستواها القديم ، وعالما أفسح من وكره الذي يعيش فيه ، انه وضع عن كل أمة اصرها ، والاغلال التي كانت عليها ، وأنقذها من العنصرية والجنسية والوطنية ، وعبادة المال والبيوتات ، والاشجار والاحجار ، والحيوانات والانهار ، والارواح والاجرام السماوية ، ومن الرهبنة الفاتكة بالمدنية ، والعزبة القاطعة للنسل ، وهو الذي طلسم الاوهام التي مضى عليها قرون ، ودرج عليها أجيال ، أطلق العقل من أساره ، ورفع الحجر عن العلم ، ونسخ احتكار البيوتات للدين ، ورسم في الذهن منزلة العمل الفردي ، والسعي الشخصي ، واستقلال كل انسان بعمله ومسئوليته ، ومن الذي يستطيع أن ينكر أن الفضل في تقدم العالم ، وقطع مراحل المدنية والعلم ، انما يعود الى الاسلام • ومن الذي يجهل اليوم أن الفضل في تقدم أوربا وتخلصها من رق الاحبار والرهبان ، وسلاسل الكنيسة والحكم المطلق ، وفي العكوف على العلوم الطبيعية والتجريبية ، والخروج من الهمجية الى الحضارة ، انما يعود الى الاندلس الاسلامية التي ظلت قرونا طوالا مشعل الثقافة ، ومنبع العلم ، ومدرسة الفن والتهذيب في العصور المظلمة ! ان كلمات العدل والمساواة ، والانسانية منتشرة ذائعة اليوم في كل ناحية من نواحي الهند ، وبارزة على كل صفحة من صفحات أدبائها وكتابها ، وخفيفة على لسان كل خطيب ومتكلم ، ومن ذا يكابر في أن الاسلام هو الذي عرّف هذه الكلمات الى أهل هذه البلاد ، وسعى في رواجها وذيوعها في بلاد لم تكن تعرف هذه الكلمات ومعانيها •

ان المسلمين ليسوا نسلا أو شعبا فحسب ، وليس الاسلام عادات وتقاليد وتراثا يتوارثه ولد عن أبيه ، انه دعوة ورسالة ، وحياة وعقيدة ، تقتضي بالطبع ، أن يكون نظر المسلم أوسع من الماديات المحسوسات ، ومن عالم النفوس والبطون ، ووطنه أوسع من المنطقة

الصغيرة التـي ولـد فيها ، وأن يكون قلبه عامرا بحب كل انسان كائنا من كان ، وأن لا تكون الاوطان والانساب عائقا ، في سبيل حبه وعطفه ، وأن لا يكون سعيه منحصرا في نطاق الحياة الضيق ، ويلزم لكل من يدين بهذا الدين أن يحمل للبشرية رسالة للروح والقلب ، والعاطفة والسياسة والاجتماع ، ويملك قوة أخلاقية تراقبها في النور والظلام ، والوحدة والاجتماع ، والعجز والمقدرة ، عنده أساس متين من العلم ، وبينات ومحكمات في المدنية ، وحياة نبي كان ولا يزال المثل الكامل للبشرية في مختلف ظروفه وأحواله ، ومختلف عصوره وأجياله، وكل عصر وقطر ، ومفزع الانسانية في كل ساعة عصيبة ، وكلما حلت بها أزمـة عجزت عن حلهـا العقـول البشرية ، والنظـم الاجتماعية والسياسية ٠

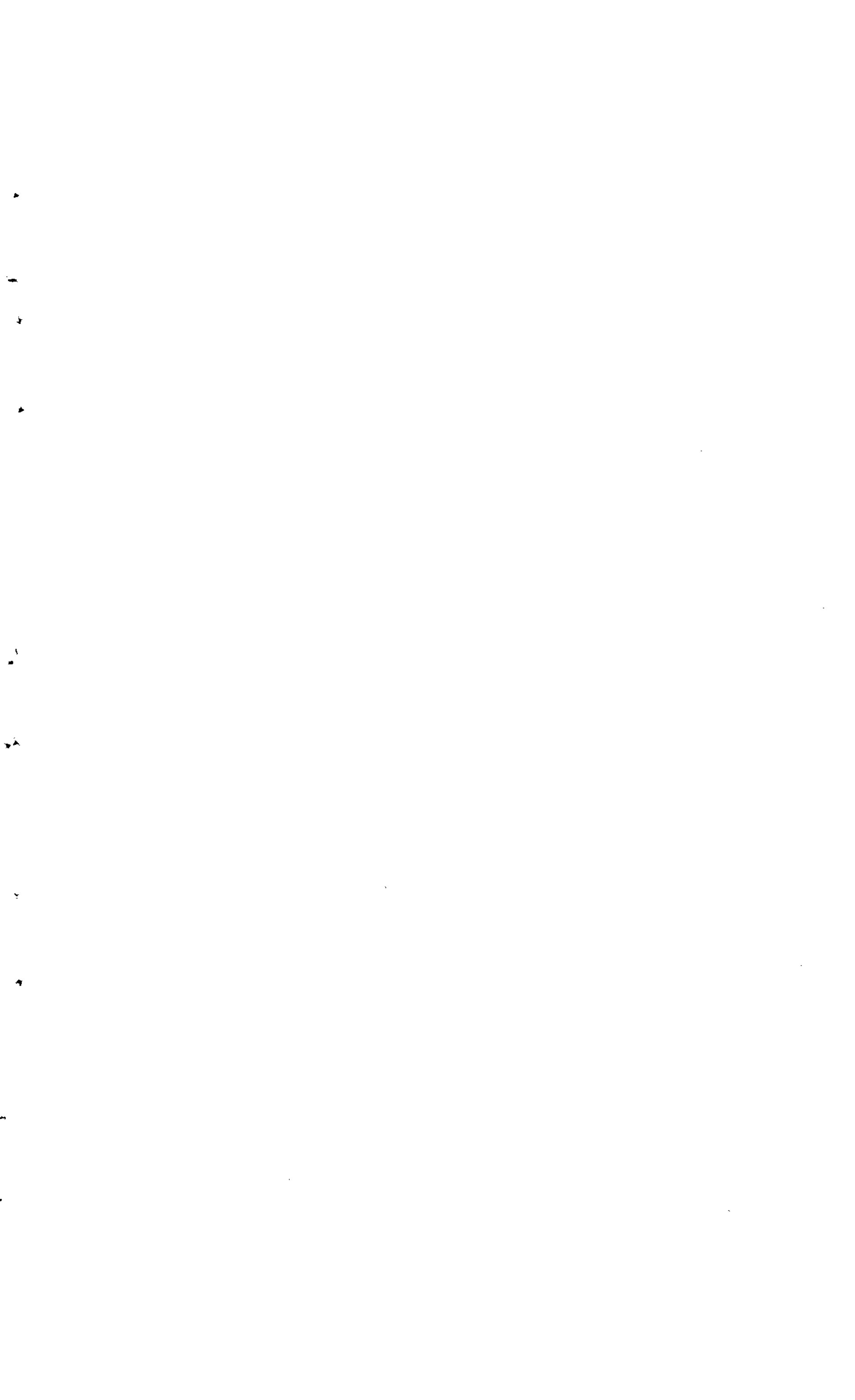
اذا حجب الليل النهار ، وهجمت جنود الهوى من كل جانب ، وهزمت الفضيلة والاخلاق ، واذا أصبح الانسان ينحر أخاه لاجـل فلس أو لاجل قرص ، واذا أصبحت الشعوب الكبيرة تزدرد الشعوب الصغيرة في سبيل الجشع أو الخيلاء ، واذا صار وثن المال يعبـد على قارعة الطريق ، واذا ضحي بألوف من الناس على أنصـاب الجنسية والوطنية ٠ واذا حال الانسان بين الانسان ورزقه ، اذا التهبت نار الشهوات ، وانطفأ نور القلب ، اذا نسي الانسان الموت ، وعكف على الحياة يعبدها ، اذا غلا الجماد والمعادن ، ورخص الانسان في سـوق العالم ، فصارت المدن العامرة تسوى بها الارض ، وألوف من البشر يقتلون في دقائق وثوان بالقنبلة الذرية ٠ اذا تغلبت الامم الاوربية على العالم ، وجعلته بيت المقامرين ، أو سـوق الجزارين ، وعبثت بالانسانية عبث الوليد بجانب القرطاس ، وتلاعبت بالامم كالكرة ٠ اذا ظهر الفساد في البر والبحر بما كسبت أيـدي الناس ٠ هنالك يستصرخ هذا الكون المؤمن ، ويستغيث به ، وهنالك تناديه الانسانية باسم الاسلام الذي طلع كالصبح الصادق في ظلام الليل الحالك ، وباسم

محمد صلى الله عليه وسلم الذي أغاث الله به الانسانية في احتضارها وانتحارها ، وحفظ به مهجة الانسانية ، وأدال به من الجاهلية الجهلاء٠

فهل يسمع المؤمن في جزيرة العرب التي أشرقت منهـــا شمس الاسلام ، وفي حواضر البلاد العربيــة في آسيا وافريقيا ، وفي الاقطار الاسلامية عامة ، صراخ الانسانية وعويلها ، فيهب من نومه العميق الطويل الذي مله العالم ، ويثب كالاسد ، وينقض كالصقر على أعداء الانسانية ٠ انه بذلك لجدير وبحول الله على ذلك قدير ، فهو معقل الانسانية ، ومنتهى الرجاء ، وأمين الله في الارض وخليفة الانبياء ٠

يدعون سيارا اذا احمر القنا   ولـكل يــوم كريهــة ســيار







حال العرب قبل الاسلام

كان العرب قبل الاسلام أمة كادت تكون منعزلة عن العالم ، قد فصلتها عن العالم المتمدن المعمور البحار من ثلاث جوانب ، وصحراء من جانب ، وكانت من الانحطاط والانقسام والضعة والخمول بمكان لا تطمع فيه حينا من الدهر الى غزو البلاد ، ولا تحلم بالانتصار على الدول المجاورة لها في المنام ، ولا تحدّث به يوما من الايام .

هذا ، ودولتا فارس والروم يومئذ سيدتا العالم ، وزعيمتا الشرق والغرب ، وقد أحاطت ممتلكاتهما بشبه جزيرة العرب ، احاطة السوار بالمعصم ، وانما زهد الفرس والرومان في فتح هذه الجزيرة لوعورتها ، وقلة خيراتها ومواردها ، وما يكلفهم ذلك من رجال وأموال ، هم في غنى عن انفاقها في هذه الصحراء المجدبة ، وفي هذه

الامة الفقيرة ، وانما اكتفوا برقابتهم السياسية عليها ، وباماراتهم التي أنشأوها على ثغور هذه الجزيرة الواسعة ولهواتها (١)

هكذا كانت هذه الامة التي ما كانت لتمثل دورا مدهشا في تاريخ العالم عن قريب ، كانت أمة بدوية موهوبة ــ ولكن مواهب ضائعة ــ لا يرفع الناس بأفرادها في العراق والشام ومصر رأسا ، اذا مروا بهم تجارا أو ممتارين (٢) ، ولا يحسبون لهم حسابا ، ولا يهمهم شأنهم الا ما يهم أهل المدن شأن الاعراب المستغربين في اللباس ، والصورة واللسان ، ولا يذكرونهم ــ اذا ذكروهم ــ الا بذلاقة لسانهم ، وفصاحة منطقهم ، وشجاعتهم ، وجودة خيلهم، ووفائهم، الى غير ذلك مما قد تعرفه الامم المتمدنة عن الامم البدوية ٠

آراء رجال ذلك العصر في العرب

واذا أردت أن تعرف منزلة العرب عند أهل العالم ، قبل الاسلام ، والنظرة التي كان ينظر اليهم بها جيرانهم في الشرق والشمال (٣) ، فاستعرض الآراء التي أبداها

---

١ ــ لهواتها : أطرافها البعيدة ٠
٢ ــ الممتار : من يجلب الميرة وهي الطعام ٠
٣ ــ كان جيران العرب في الشرق الفرس وجيرانهم في الشمال الرومان٠

رجال ذلك العصر ، من أهل البصر والمعرفة ، ووافق عليها العرب أنفسهم وزادوا عليها . فمما حفظه لنا التاريخ من هذه الآراء ، ما قاله امبراطور الدولة الفارسية لسفراء المسلمين .

جاء في كتاب البداية والنهاية لابن كثير الدمشقي بعدما ساق حديث رسل المسلمين في مجلس يزدجرد :

قال : « فتكلم يزدجرد فقال : اني لا أعلم في الارض أمة كانت أشقى ولا أقل عددا ، ولا أسوأ ذات بين منكم ، قد كنا نوكل بكم قرى الضواحي ليكفوناكم ، لا تغزوكم فارس ، ولا تطمعون أن تقوموا لهم ، فان كان عددكم كثر ، فلا يغرنكم منا ، وان كان الجهد [1] دعاكم ، فرضنا لكم قوتا الى خصبكم ، وأكرمنا وجوهكم ، وكسوناكم ، وملكنا عليكم ملكا يرفق بكم » . فقال المغيرة بن شعبة :

« أيها الملك ، انك قد وصفتنا صفة لم تكن بها عالما ، فأما ما ذكرت من سوء الحال ، فما كان أسوأ حالا منا ، وأما جوعنا فلم يكن يشبه الجوع ، كنا نأكل الخنافس والجعلان ، والعقارب والحيات ، ونرى ذلك طعامنا . وأما المنازل فانما هي ظهر الارض ، ولا نلبس الا ما غزلنا من أوبار الابل وأشعار الغنم . ديننا أن يقتل بعضنا بعضا ، وأن يبغي بعضنا على بعض . وان كان أحدنا ليدفن ابنته وهي حية ، كراهية أن تأكل من طعامه ، وكانت حالنا قبل اليوم على ما ذكرت لك ، فبعث الله الينا رجلا ... الخ [2] » .

---

١ ـ المشقة والبلاء .
٢ ـ البداية والنهاية (ح ٧ ص ٤١ ـ ٤٢) .

وجاء في هذا الكتاب أيضا :

« ... وقد بعث أمير الفرس ، يطلب رجلا من المسلمين ليكلمه ، فذهب اليه المغيرة بن شعبة ، فذكر من عظم ما رأى عليه من لبسه ، ومجلسه ، وفيما خاطبه به من الكلام في احتقار العرب ، واستهانته بهم ، وأنهم كانوا أطول الناس جوعا ، وأبعد الناس دارا ، وأقذر الناس قذرا وقال : ما يمنع هؤلاء الاساورة [1] حولي أن ينتظموكم[2] بالنشاب ، الا تنجسا من جيفكم ، فان تذهبوا نخلّ عنكم ، وان تأبوا نـُزركم مصارعكم . قال فتشهدت وحمدت الله وقلت : لقد كنا أسوأ حالا مما ذكرت حتى بعث الله رسوله ... الخ [3] » .

وفي هذا الكتاب أيضا :

« وذكر الوليد بن مسلم : أن ماهان طلب خالدا ليبرز اليه فيما بين الصفين ، فيجتمعا في مصلحة لهم ، فقال ماهان : انا قد علمنا أن ما أخرجكم من بلادكم الجهد والجوع ، فهلموا الى أن أعطي كل رجل منكم عشرة دنانير ، وكسوة وطعاما ، وترجعون الى بلادكم . فاذا كان من العام المقبل بعثنا لكم بمثلها [4] » .

وهذا كله يدل على ما كان يساوي العرب عند الروم ، وعلى ما كان لهم من قيمة ومنزلة عندهم .

---

١ ــ الاسوار عند الفرس : القائد ، جمعه أساور وأساورة .
٢ ــ ينتظموكم : يشكوكم .
٣ ــ البداية والنهاية (ج ٧ ص ١٠٩) .
٤ ــ البداية والنهاية (ج ٧ ص ١٠) .

تغير حال العرب بالاسلام

ولكن سرعان ما تغيرت الاحوال ، وانقلبت الحقائق ، وبطلت التجارب السابقة ، وتاه العقل ، اذ خرج هؤلاء الاعراب من صحرائهم ، يفتحون ، ويقهرون ، ويغلبون ، ويخضعون • تدفق هذا السيل من مدينة الرسول صلى الله عليه وسلم عاصمة العرب الاسلامية ، لاحدى عشر سنة للهجرة النبوية ، واثنين وثلاثين وست مائة لميلاد المسيح ، فغلب كلشيء اعترضه في الطريق، وطما[1] على السهل والجبل، ولمتكن جيوش فارس والروم ومصر وغيرها المعدودة بمئات الالوف ، الشاكة السلاح [2] ، الشديدة البطش ، التي كانت الارض تزلزل بها زلزالا ، لم تكن هذه الجنود المجندة الا حشائش في هذا التيار الجارف ، فلم تعق سيره ، ولم تغير مجراه ، حتى فاض في مروج الشام ، وفلسطين ، وسهول العراق وفارس ، وربوع مصر والمغرب الاقصى ، وأودية هملايا، سال هذا السيل القوي بالمدنيات العتيقة ، والحكومات المنظمة القوية ، والامم العريقة في المجد والسلطان فأصبحت خبرا بعد عين (فجعلناهم أحاديث ومزقناهم كل ممزق) [3] •

خرج العرب من جزيرتهم فاحتكوا بالفرس والروم ، وكان العرب يكرهون وجوههم [4] ويرهبون سطوتهم في ديارهم ، ولكن هانوا عليهم

---

١ ــ علا وغطى •

٢ ــ الشاكة السلاح : التامة السلاح أو الحادة السلاح •

٣ ــ الآية ١٩ من سورة سبأ •

٤ ــ قال الطبري : عندما أراد عمر فتح فارس تخوفوا من الفرس وعجبوا كيف يستطيعون أن يحاربوهم ؟ وكان وجه فارس من أكره الوجوه اليهم ، وأثقلها عليهم ، لشدة سلطانهم وشوكتهم ، وعزهم وقهرهم الامم • (تاريخ الطبري ج ٤ ص ٦١) •

في هذه المرة ، فغزوهم في عقر دارهم ، ونزلوا لساحتهم ، فما لبثوا أن مزقوا جموعهم شر ممزق ، وثلوا عروشهم [١] ووطأوا تيجان ملوكهم ، وفتحوا كنوزهم ، واقتسموا أموالهم وتراث ملوكهم ، وسبوا ذراريهم ، ومزقوا رداء فخرهم وعظمتهم ، فلم يرقع أبدا ، وكسروا شوكتهم ، فلم تعد أبدا ، وهلك كسرى فلا كسرى بعده ، وهلك قيصر فلا قيصر بعـده ٠

(وأورثنا القوم الذين كانوا يستضعفون مشارق الارض ومغاربها التي باركنا فيها [٢]) ٠

خرج هؤلاء العرب من جزيرتهم في ثياب صفيقة [٣] مرقعة ، ونعال وضيعة مخصوفة [٤] ، يتقلدون سيوفا بالية الاجفان [٥] ، رثة المحامل ، على خيل بعضها عارية الظهور ، متقطعة الغرز [٦] ، قد بلغ بهم البعـد عن المدنية الى حـد أنهـم كانوا يحسبون الكافور ملحا ، وربما استعمله بعضهم في العجين [٧] ٠

---

١ ـ ثلوا عروشهم : هدموها ٠

٢ ـ الآية ١٣٧ من سورة الاعراف ٠

٣ ـ صفيقة : كثيفة النسيج ٠

٤ ـ خصف النعل : خرزها وضم بعضها الى بعض ٠

٥ ـ الجفن : غمد السيف أي بيته ٠

٦ ـ الغرز : ركاب من جلد يضع الرجل رجله فيه ثم يمتطي دابته ٠

٧ ـ قال ابن كثير : كان المسلمون يجيئون بعض تلك الدور ، فيجدون البيت ملآنا الى أعلاه من أواني الذهب والفضة ، ويجدون من الكافور شيئا كثيرا ، فيحسبونه ملحا ، وربما استعمله بعضهم في العجين ، فوجدوه مرا حتى تبينوا أمره (البداية والنهاية ج ٧ ص ٦٧) ٠

فما لبثوا أن ملكوا الدنيا ، وامتلكوا ناصية أمم بعيدة الشأو في المدنية ، انقلب رعاء' الشاة والابل ، رعاة لارقى طوائف البشر في العلم والمدنية والنظام ، وصار هؤلاء أساتذتهم في العلوم والآداب ، والاخلاق والتهذيب ، وحقت كلمة الله : (ونريد أن نمن على الذين استضعفوا في الارض ، ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين [1]) .

اللغز الذي أدهش المؤرخين

هذه القوة القاهرة بعد ذلك الضعف المخزي ، وهذا النشاط الغريب بعد ذلك الخمود العجيب ، وهذا الانتباه السريع بعد ذلك السبات العميق ، لغز من ألغاز التاريخ، وقد اتفقت كلمة المؤرخين على أن هذا الحادث أغرب ما وقع في التاريخ الانساني ، واليك بعض ما قال المؤرخون الاوربيون :

قول المؤرخ جبون

يقول المؤرخ « جبون » :

« بقوة واحدة ونجاح واحد ، زحف العرب على خلفاء أغسطس (في الروم) واصطخر (في فارس) ، وأصبحت الدولتان المتنافستان في ساعة واحدة فريسة لعدو ، لم يزل موضع الازدراء والاحتقار منهما . في عشر سنوات من أيام حكم عمر أخضع العرب لسلطانه ستة وثلاثين ألفا من المدن والقلاع ، خربوا أربعة آلاف كنيسة ومعبد للكفار ،

---

١ ــ الآية ٥ من سورة القصص .

وانشأوا أربعة عشر ألفا من المساجد لعبادة المسلمين • على رأس قرن من هجرة محمد صلى الله عليه وسلم من مكة ، امتد سلطان خلفائه من الهند الى المحيط الاطلانطيكي ، ورفرف علم الاسلام على أقطار مختلفة نائية كفارس وسورية ومصر وافريقيا واسبانيا [1] » •

قول المؤرخ ستودارد

ويقول « ستودارد الاميركي » في كتابه حاضر العالم الاسلامي :

« كاد يكون نبأ نشوء الاسلام النبأ الاعجب الذي دون في تاريخ الانسان ، ظهر الاسلام في أمة كانت من قبل ذلك العهد متضعضعة الكيان ، وبلاد منحطة الشأن ، فلم يمض على ظهوره عشرة عقود ، حتى انتشر في نصف الارض ممزقا ممالك عالية الذرى ، مترامية الاطراف ، وهادما أديانا قديمة كرت عليها الحقب والاجيال ، ومغيرا ما بنفوس الامم والاقوام ، وبانيا عالما حديثا متراص الاركان ، هو عالم الاسلام•

كلما زدنا استقصاء ، باحثين في سر تقدم الاسلام وتعاليه زادنا ذلك العجب العجاب بهرا ، فارتددنا عنه بأطراف حاسرة ، عرفنا أن سائر الاديان العظمى انما نشأت ، ثم أنشأت تسير في سبيلها سيرا بطيئا ملاقية كل صعب ، حتى كان أن قيض الله لكل دين منها ما أراده له من ملك ناصر ، وسلطان قاهر انتحل ذلك الدين ، ثم أخذ في تأييده والذب عنه ، حتى رسخت أركانه ومنعت جوانبه ، بطل النصرانية «قسطنطين» والبوذية « أسوكا » والمزدكية « قباء كسرو » ، كل منهم ملك جبار ، أيد دينه الذي انتحله بما استطاع من القوة والايد ، انما ليس الامر

---

١ ــ انحطاط رومة وسقوطها المجلد الخامس ص ٤٧٤ ــ ٤٧٥ طبع اكسفورد •

كذلك في الاسلام ، الاسلام الذي نشأ في بلاد صحراوية ، تجوب فيها شتى القبائل الرحالة التي لم تكن من قبل رفيعة المكانة والمنزلة في التاريخ ، فلسرعان ما شرع يتدفق وينتشر وتتسع رقعته في الارض مجتازا أفدح الخطوب وأصعب العقبات ، دون أن يكون من الامم الاخرى عون يذكر ، ولا أزر مشدود ، وعلى شدة هذه المكاره فقد نصر الاسلام نصرا مبينا عجيبا ، اذ لم يكد يمضي على ظهوره أكثر من قرنين ، حتى باتت راية الاسلام خفاقة من « البرانس » حتى « هملايا » ، ومن صحاري أواسط آسيا حتى صحارى أواسط أفريقية [١] » .

قول المؤرخ فيشر

ويقول مؤرخ عصري « هـ٠ا٠ل٠ فيشر » في كتابه تاريخ أوربا :

« لم يكن هنالك ـ في جزيرة العرب قبل الاسلام ـ أثر لحكومة عربية ، أو جيش منتظم ، أو لطموح سياسي عام ، كان العرب شعراء خياليين ، محاربين ، وتجارا ، لم يكونوا سياسيين ، انهم لم يجدوا في دينهم قوة تثبتهم أو توحدهم ، انهم كانوا على نظام منحط من الشرك ، بعد مائة سنة حمل هؤلاء المتوحشون الخاملون لانفسهم قوة عالمية عظيمة ، انهم فتحوا سورية ومصر ، ودوخوا وقلبوا فارس ، ملكوا تركستان الغربية ، وجزءا من بنجاب ، انهم انتزعوا أفريقية من البيزنطيين والبربر ، وأسبانيا من القوط ، هددوا فرنسا في الغرب ، والقسطنطينية في الشرق ، مخرت أساطيلهم المصنوعة في الاسكندرية وموانيء سوريا ، مياه البحر المتوسط ، واكتسحت الجزائر اليونانية،

---

١ ـ حاضر العالم الاسلامي ج ١٠ تعريب الاستاذ عجاج نويهض مقدمة في نشوء الاسلام ٠

وتحدت القوة البحرية للامبراطورية البيزنطية ، لم يقاومهم الا الفرس وبربر جبال الاطلس ، انهم شقوا طريقهم بسهولة حتى صعب في بداية القرن الثامن المسيحي أن يقف في وجههم واقف ، ويعرقل سيرهم في الفتح والاستيلاء ، لم يعد البحر المتوسط بحر الروم ، بل أصبح حوضا عثمانيا لا سيطرة فيه لغير الترك ، ووجدت الدول النصرانية من أقصى أوربا الى أقصاها منذرة مهددة بحضارة شرقية مبنية على دين شرقي[1]» ٠

ويقول مؤلف شيوعي :

« ان الانسان ليدهش اذا تأمل السرعة الغريبة التي تغلب بها طوائف صغيرة من الرحالين ، الذين خرجوا من صحراء العرب مشتعلين بحماسة دينية على أقوى دولتين في الزمن القديم ، لم يمض خمسون سنة على بعثة محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ حتى غرز أتباعه علم الفتح على حدود الهند في جانب ، وعلى ساحل البحر الاطلانطيكي في جانب آخر ، ان خلفاء دمشق الاولين حكموا على امبراطورية ، لم تكن لتقطع في أقل من خمسة أشهر على أسرع جمل ، وحتى نهاية القرن الاول للهجرة كان الخلفاء أقوى ملوك العالم ٠

كل نبي جاء بمعجزات آية لما يقول ، وبرهانا على صدقه ، ولكن محمدا ـ صلى الله عليه وسلم ـ هو أعظم الانبياء وأجلهم، اذ كان انتشار الاسلام أكبر آيات الانبياء وأروعها اعجابا وخرقا للعادة، ان امبراطورية أغسطس الرومية بعدما وسعها بطلها « تراجان » نتيجة فتوح عظيمة في سبعة قرون ، ولكنها لا تساوي المملكة العربية التي أسست في أقل من قرن ، ان امبراطورية الاسكندر لم تكن في اتساعها الا كسرا من كسور مملكة الخلفاء الواسعة ، ان الامبراطورية الفارسية قاومت الروم زهاء ألف سنة ، ولكنها غلبت وسقطت أمام « سيف الله » في أقل من عشر

---

(1) H. L. FISHER : « A. History of Europe » P.P. 137 - 138.

سنوات [1] .

نظرة تحليلية في هذا اللغز

والآن ننظر في هذا الحادث الغريب نظرا علميا تحليليا، ونبحث عن أسبابه الحقيقية ، الجنود والدول في هذا العالم المادي تغلب الجنود والدول في الغالب لوفرة عددها أو بزيادة عدتها وعتادها ، ولانها أحسن في الشكة والسلاح ، وفي التنظيمات العسكرية ، وفائقة في النظام الحربي ، فنتناول جميع هذه العلل المادية التي يرجع اليها الفضل في انتصار الجيوش ، والدول عامة ، ونبحث فيها علة علة :

مسألة العدد

أما العدد فمعلوم أنه كانت النسبة بعيدة بين المقاتلين في جميع المواقف الحاسمة والمعارك الفاصلة في كفاح الاسلام والنصرانية والمجوسية ، وكان الروم والفرس أضعاف عدد المسلمين في أكثر الوقائع . هذه اليرموك كان الروم الذين نفروا لقتال المسلمين يبلغ عددهم مائة ألف وثمانين ألفا ، وفي رواية مائتي ألف ، وفي رواية أربعين ومائتي ألف . وأقل ما روي عن عددهم عشرون

(1) M. N. ROY : « Historical Role of Islam » P.P. 4,5,9,7 .

ومائة ألف ، وأكثر ما ذكر عن المسلمين أنهم كانوا أربعة وعشرين ألفا • كذلك كانت النسبة بعيدة في وقعة القادسية ، وهي أختها في العراق والنتيجة معلومة ، « وما يوم حليمة بسر » (١) •

وقد اعترف بقلة المسلمين ووفرة جنود الروم والفرس المؤرخون جميعا ، ولم يعللوا الفتح الاسلامي الغريب في التاريخ بكثرة عدد مقاتلة المسلمين ، جاء في الفصل الرابع للاستاذين « غودفروا دمونبين » و « بلانونوف » :

« ان العرب الذين أفاضوا من الجزيرة لفتح الامصار لم يكونوا عصائب لا تحصى ولا تعد ، تدفقت على الشرق المتمدن ، فقد أحصى مؤرخو العرب الجيش الاول للمسلمين في اليرموك بثلاثة آلاف ، ثم أرسل اليهم الخليفة بنجدة أبلغتهم ٧٥٠٠ مقاتل ، وأخيرا تتام عددهم ٣٤ ألفا، وأما عدد الروم فقال العرب : انه كان مائة ألف ، وقيل ١٣٠ ألفا وقيل ٢٠٠ ألف مقاتل ، ولم يزده مؤرخو بيزنطية على ٤٠ ألفا وعلى كل حال كان العدد الاكبر لاعداء العرب ، وهكذا في حروب فارس (٢) »•

ومعلوم أن جزيرة العرب قليلة العمران بالنسبة الى مساحتها واتساع رقعتها ، معظمها صحراء ، ورمال وعثاء ، وأرض قاحلة جرداء، أما البلاد التي زحف عليها المسلمون ورموا فيها بأنفسهم ، فهي من

---

١ ــ يوم حليمة : هو يوم من أشهر أيام العرب في الجاهلية ، وهذا المثل يضرب في كل أمر متعالم مشهور •

٢ ــ حاضر العالم الاسلامي حواشي الامير شكيب أرسلان (ج ١ ص ٣٩) •

أخصب بلاد الله مستبحرة العمران ، مكتظة بالسكان ، وكانت خليتها تعسل حينا بعد حين ، وتقطع بعوثا اثر بعوث ٠ وتتدفق سيول من الجيوش والمقاتلة ، وتأتيهم الميرة من كل مكان لا تكاد تنتهي ، وكان العرب الغرباء كنقطة مغمورة في بحار من الاعداء ، نازحين عن بلادهم، منقطعين عن مركزهم ، ولا يصلهم المدد الا بشق الانفس وبعد شهور ، ولا يجدون من الميرة الا ما يتغلبون عليه وينتزعون من أيدي أعدائهم انتزاعا فلو تطوعت جزيرة العرب كلها لقتال الروم والفرس ، ونفر جميع أهاليها للجهاد في سبيل الله على أن ذلك من المستحيل ــ لما وقعوا من العالم النصراني والمجوسي ــ وهما أكثر من نصف الارض المعمورة ــ بمكان ، فكيف والذين تطوعوا للجهاد ما كانوا نصف عشر عمران الجزيرة ؟! ٠

مسألة العتاد والسلاح

أما العُدد والعتاد ، فكان العرب أفقر فيها ، وأقل منهم في العدد ، فلم تكن هناك جنود مرتزقة ، ولا جيوش منظمة تعبئها الحكومة وتسلحها من عندها ، ثم تبعثها كاملة السلاح تامة الجهاز ، انما كان متطوعون، يجهزون أنفسهم وينفرون شوقا الى الجهاد في سبيل الله ورجاء ثوابه ، ومنهم من لا يجد راحلة ويلتمس عند غيره فلا يجد ، فيقعد متلهفا على ما يفوته من سعادة الجهاد في سبيل الله ، وقد أنزل الله فيهم : « ولا على الذين اذا ما أتوك لتحملهم قلت : لا أجد ما أحملكم عليه ، تولوا وأعينهم تفيض من الدمع حزنا ألا يجدوا ما ينفقون »[1] ٠

---

١ ــ الآية ٩٢ من سورة التوبة ٠

وكان المسلمون تزدريهم أعين الروم والفرس لما خرجوا لقتالهم • وكانوا يسخرون من سلاحهم ونبالهم وثيابهم ويضحكون • قال أبو وائل ـ أحد الذين شهدوا القادسية ـ :

كان الفرس يقولون للمسلمين : « لا يد لكم ولا قوة ولا سلاح ، ما جاء بكم ؟ ارجعوا • قال : قلنا : ما نحن براجعين ، فكانوا يضحكون من نبلنا ، ويقولون : دوك دوك ، ويشبهونها بالمغازل [١] •

قال ابن كثير :

« وكان سعد قد بعث طائفة من أصحابه الى كسرى يدعونه الى الله قبل الوقعة ، فاستأذنوا على كسرى فأذن لهم ، وخرج أهل البلد ينظرون الى أشكالهم ، وأرديتهم على عواتقهم ، وسياطهم بأيديهم ، والنعال في أرجلهم ، وخيولهم الضعيفة ، وخبطها الارض بأرجلها ، وجعلوا يتعجبون منها غاية العجب ، كيف مثل هؤلاء يقهرون جيوشهم مع كثرة عددها وعُددها » [٢] •

ويقول « ماكس مايرهوف » في تأليفه « العالم الاسلامي » :

« يكاد يكون مستحيلا أن نفهم كيف أن أعرابا منتمين الى عشائر، ليست عندهم العدد والاعتدة اللازمة ، يهزمون في مثل هذا الوقت

---

١ ـ البداية والنهاية (ج ٧ ص ٤٠) •
٢ ـ أيضا (ج ٧ ص ٤١) •

القصير جيوش الرومان والفرس ، الذين كانوا يفوقونهم مرارا في الأعداد والعتاد ، وكانوا يقاتلونهم وهم كتائب منظمة [1] » .

مسألة تفوق العرب في النظام الحربي

ومما قيل في تعليل غلبة المسلمين ، أن العرب كانوا فائقين في نظامهم الحربي على الروم والفرس في ذلك العصر ، وكانت كتائبهم أحسن تنظيما وتدريبا ، وآفضل نظاما عسكريا ، وأكثر انقيادا لأمرائها وقوادها من العساكر الرومية والفارسية ، وأن الفضل في انتصار العرب مع قلتهم وانكسار الروم والفرس رغم كثرتهم ، يرجع الى مراس العرب للقتال وضراوتهم بالحروب ، وولوعهم بالغزو والنهب ، ونشأتهم الجاهلية الأولى النشأة الحربية المحضة .

هذا الكلام يشبه أن يكون وجيها وأكثر صوابا من التعليلات السابقة .

ولكنك اذا انتقدته كباحث ومؤرخ وجدته مغالطة كبيرة يغالط بها الكتاب الأوربيون ويتعللون بها ، وقد يفهمون وقد لا يفهمون .

وقد ثبت في تواريخ القرون الوسطى أن الروم ـ وكذا

---

١ ـ حاضر العالم الاسلامي حواشي الأمير شكيب أرسلان (ج١ ص٣٩) .

الفرس ـ كانوا راقين في نظامهم الحربي في ذلك العصر ، وقد بلغت الدولة البزنطية في بداية القرن السابع المسيحي زهوها ، وأوج فتوحاتها الحربية ، ففي ذلك العهد دحر الروم الفرس ، وردّوهم على أعقابهم ، وجاسوا خلال الديار ، وعبر هرقل جبال الكرد ونهر دجلة غازيا منتصرا ،وبعد حرب دامية في ساباط ومعركة فاصلة في نينوى ، دخل دستجرد وتقدم الى المدائن ، وغرز علم الفتح الرومي في قلب فارس ، وذلك كله في سنة ٦٢٥ م يعني قبل زحف المسلمين على الشام باثني عشرة سنة فقط ٠

وقد أفادت هذه الحروب الطاحنة التي بدأت من سنة ٦٠٣ الفريقين ـ الروم وفارس ـ من جهة الحرب والتدريب كثيرا ، وقد استفاد الفريقان أساليب جديدة للقتال وحنكة وحسن بلاء في الحرب ، وتعلم كل فريق من الآخر كما كان الشأن في الحروب الصليبية في القرون الوسطى ٠

وقد اعترف «جبون» مؤرخ رومة الكبير بفضل الروم على العرب في الحروب ونظامها ، فقد قال في كتابه (المجلد الخامس ص ٤٧٨) :

أنا ألاحظ هنا وسأكرره مرارا ، أن هجوم العرب

وقتالهم لم يكن مثل الرومان واليونان ، الذين كانت لهم رجالة قوية مستحكمة ، كانت القوة العسكرية للعرب مركبة من فرسان ورماة ، وكانت الحرب التي قد تقاطعها مبارزات شخصية ومناوشات من القتال ، قد تستمر وتطول بغير حادثة فاصلة الى عدة أيام ·

أما ما قيل من مراس العرب للقتال وتدربهم عليها : بفضل حروبهم القبلية التي كادت تكون مستمرة ، وتمكنهم من الانتصار على الروم والفرس ، فلم تكن هذه المناوشات والغزوات الطائفية بحيث يتمكن بها العرب من قهر الامبراطوريتين الكبيرتين الرومية والفارسية ، وقد خضع العرب مع هذا كله للحبشة ولفارس في جنوب العرب ، وانسحبوا أمام جيوش أبرهة في زحفه على مكة ، وأن الله هو الذي تولى بيته وكفى قريشا القتال وجعل أصحاب الفيل كعصف مأكول ، ولماذا لم يجسر العرب على الخروج من جزيرتهم وغزو البلاد وفتحها في هذه القرون الطويلة التي قضوها في شبه جزيرتهم في خمود وخمول تام ؟ لماذا لم يهاجموا الروم والفرس كما فعلوا بعد بعثة محمد صلى الله عليه وسلم بغير تراخ؟ ولماذا لبثوا الأحقاب والأجيال الطوال « معكومين على رأس حجر بين الأسدين فارس والروم » كما يقول قتادة أحد التابعين الكبار [1] ·

---

١ ـ تفسير ابن جرير (ج ٤ ص ٣٣) · ومعكوفين : مشدودين ·

أما ما قيل عن النظام فلا ننكر حسن نظام العرب في حروبهم وغزواتهم ، وروح التعاون والتفادي ، الساري في جنودهم والطاعة والانقياد لأمراء الجيوش وقوادها ، والتفاني والاستماتة في سبيل الله ، ولكن يعلم الخبير أن النظام ليس شيئا صناعيا ميكانيكيا ، يحصل بمجرد تنظيمات عسكرية ، وفنون حربية وقواعد رياضية ، ولو صففت الحجارة تصفيفا بديعا ، أو أقيمت العمد والسواري على نظام فني رياضي كامل لم تنفع شيئا ، وقد قرأت في التاريخ أن الروم والفرس قد كانوا في بعض المواقف الجليلة يسلسلون أنفسهم ، ويحفرون لهم في الأرض لئلا يندحروا أو ينسحبوا من ميدان القتال ، ثم لا يغني عنهم هذا شيئا ، فليس الشأن كله في النظام في الحرب ؛ انما الشأن الكبير والتأثير البليغ للروح والمبدأ والغاية التي يقاتل لأجلها الجنود ، وتمكنها من النفوس، وهي منبع القوة الخارقة للعادة ، ومبعث الشجاعة التي تبهر العقول وسبب الفتوح العظيمة التي يندهش لها المؤرخون والفلاسفة ٠

منبع القوة الحقيقي عند العرب المسلمين

وعن هذا المنبع نبحث في نفوس العرب الأولين الذين خرجوا لفتح العالم، وفتحوا نصف الأرض في نصف قرن ٠

منبع هذه القوة وسبب هذا الانقلاب العظيم الذي لا يوجد له مثيل في التاريخ ، أن العرب أصبحوا بفضل تعليم محمد صلى الله عليه وسلم أصحاب دين ورسالة ، فبُعثوا بعثا جديدا ، وخُلقوا من جديد وانقلبوا في داخل أنفسهم فانقلبت لهم الدنيا غير ما كانت ، وانقلبوا غير ما كانوا ، نظروا الى العالم حولهم ــ وطالما رأوه في جاهليتهم بدهشة واستغراب ــ فاذا الفساد ضارب أطنابه ،واذا الظلم مادّ رُواقه ، واذا الظلام مخيم على العالم كله ، وكل شيء في غير محله ، فمقتوه وأبغضوه. ونظروا الى الأمم وطوائف البشر حول جزيرتهم ــ وطالما رأوها بتعظيم واجلال ، وغبطة واكبار ــ فاذا أنعام ودواب في صورة البشر « يأكلون كما تأكل الأنعام والنار مثوى لهم[1]» واذا صور ودمى قد كسيت ملابس الانسان ، فاستهانوا بهم ، وبما هم فيه من ترف ونعيم ، وزخارف وزينة، وقرأوا قول الله تعالى: « زهرة الحياة الدنيا لنفتنهم فيه »[2] ــ فلا تُعجبك أموالهم ولا أولادهم ، انما يريد الله ليعذبهم بها في الحياة الدنيا ، وتَزهَقَ أنفسهم وهم كافرون[3] » .

وعلموا أن الله قد ابتعثهم ليخرجوا الناس من الظلمات الى النور، ومن عبادة العباد الى عبادة الله ، ومن ضيق الدنيا الى سَعَتها ومن جور الأديان الى عدل الاسلام ،وأورثهم أرضهم وديارهم وأموالهم ، وأرضا لم يطأوها ، واستخلفهم في الأرض ومكنهم فيها ، وقرأوا قول الله تعالى : « ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر أن الارض يرثها عباديَ الصالحون » [4] وقوله : « وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم ، وليمكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم ، وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا ، يعبدونني

---

١ ــ الآية ١٢ من سورة محمد .
٢ ــ الآية ١٣١ من سورة طه .
٣ ــ الآية ٥٥ من سورة التوبة .
٤ ــ الآية ١٠٥ من سورة الأنبياء .

لا يشركون بي شيئا » [١] وتعلقوا بقول نبيهم صلى الله عليه وسلم :

« ان الله زَوى [٢] لي الارض فرأيت مشارقها ومغاربها ، وان أمتي سيبلغ ملكها ما زُوِيَ لي منها ، وأعطيت الكنزين الأحمر والأبيض [٣] » .

وقوله : « اذا هلك كسرى فلا كسرى بعده ، واذا هلك قيصر فلا قيصر بعده ، والذي نفسي بيده لتنفقن كنوزهما في سبيل الله [٤] » .

وعرفوا أن الله قد ضمن لهم النصر ، ووعدهم بالفتح ، فوثقوا بنصر الله ووعد رسوله ، واستهانوا بالقلة والكثرة ، واستخفوا بالمخاوف والأخطار ، وذكروا قول الله تعالى : « ان ينصركم الله فلا غالب لكم ، وان يخذلكم فمن ذا الذي ينصركم من بعده ، وعلى الله فليتوكل المؤمنون » [٥] . وقوله : « كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة باذن الله والله مع الصابرين [٦] » .

تفطن عقلاء الناس لسر قوة العرب

قول هرقل في هذا الأمر

وقد فطن بهذه الحقيقة بعض معاصري المسلمين وأعدائهم، وأهل النظر والتمييز في ذلك العصر من الروم

١ ــ الآية ٥٥ من سورة النور .
٢ ــ زوى لي الارض : جمعها وقبضها .
٣ ــ رواه الترمذي .
٤ ــ رواه الترمذي .
٥ ــ الآية ١٦٠ من سورة آل عمران .
٦ ــ الآية ٢٤٩ من سورة البقرة .

والفرس ، فمن ذلك ما روى ابن كثير أن هرقل لما انتهى اليه خبر زحف المسلمين قال لأهل الشام :

« ويحكم ان هؤلاء أهل دين جديد وانهم لا قبل لاحد بهم ، فأطيعوني وصالحوهم بما تصالحونهم على نصف خراج الشام ، ويبقى لكم جبال الروم وان أنتم أبيتم ذلك أخذوا منكم الشام وضيقوا عليكم جبال الروم » (١) .

أما عقيدة المسلمين أنهم مبعوثون الى الامم موكلون باخراج الناس الى عبادة الله وحده، وأن الله متولي نصرهم ضامن بظفرهم ، فستلمحه وتلمسه في كل مكان يصدر من المسلمين من كلام وفعال ، ومن ثقتهم وسكينة قلوبهم .

قول أبي بكر وعمر رضي الله عنهما

ومن ذلك ما روي أن الامراء في اليرموك لما كتبوا الى أبي بكر وعمر ،يعلمونهما بما وقع من الامر العظيم ، وما يقابلونه من خطر داهم وعدد لا قبل لهم به ، كتب اليهم : أن اجتمعوا ، وكونوا جندا واحدا ، وآلقوا جنود المشركين ، فأنتم انصار الله ، والله ناصر من نصره ، وخاذل من كفره ، ولن يؤتى مثلكم عن قلة ، ولكن من تلقاء الذنوب ، فاحترسوا منها (٢) .

---

١ و ٢ ــ البداية والنهاية (ج ٧ ص ٥) .

قول علي رضي عنه

ولما استشار عمر أصحابه في مسيره الى العراق بوقعة نهاوند ، قال له علي بن أبي طالب : « يا أمير المؤمنين ان هذا الامر لم يكن نصره ولا خذلانه بكثرة ولا قلة ، وهو دينه الذي أظهر ، وجنده الذي أعزه وأمده بالملائكة حتى بلغ ما بلغ ، فنحن على موعود من الله ، والله منجز وعده وناصر جنده [1] » .

قول سعد وسلمان رضي الله عنهما

ولذلك كانوا يخاطرون بأنفسهم ويأتون بأعاجيب وأعمال خارقة للعادة ، ثقة بنصر الله واعتمادا على موعوده ، حتى أنهم خاضوا بخيولهم في دجلة ، وكانوا يتحدثون مطمئنين كأنهم سائرون على البر ، وكان منظرا غريبا . وجعل الفرس يقولون : « ديوان آمدند » ـ يعنون الجن والعفاريت ـ ويقولون : « ديوانه » « ديوانه » يعنون المجانين ، وكان الذي يساير سعد بن أبي وقاص في الماء سلمان الفارسي ، فجعل سعد يقول : حسبنا الله ونعم الوكيل ، والله لينصرن الله وليه ، وليظهرن الله دينه ، وليهزمن الله عدوه ، ان لم يكن في

---

١ ـ البداية والنهاية (ج ٧ ص ١٠٧) .

الجيش بغي أو ذنوب تغلب الحسنات فقال له سلمان : « ان الاسلام جديد • ذللت لهم ــ والله ــ البحــور كما ذلل لهم البر • أما والذي نفس سلمان بيده ليخرجن منه أفواجا كما دخلوا أفواجا ، فخرجوا منه كما قال سلمان: لم يغرق منهم أحد ولم يفقدوا شيئا (١) » •

قول عبد الله بن رواحة رضي الله عنه •

بعثت هذه العقيدة والنفسية طمــأنينة في أنفسهم ، وسكينة في قلوبهم ، وشجاعة خارقة للعادة ، واستهانة بالعدد والعُدد،وعدم عبادة للمادة ، وعدم اتخاذ الاسباب أربابا ، وعرفوا أنهم يقاتلون بقوة الدين ، ويظفرون ويغلبون ببركة الاسلام ، فكانوا شــديدي الاحتفاظ ، كثيري الاعتداد بها ، يتمثل ذلك فيما قال عبد الله بن رواحة رضي الله عنه ، روى يونس عن ابن اسحاق : أن المسلمين بلغهم أن هرقل نزل بمآب في مائة ألف من الروم ومائة الف من المستعربة (٢) ــ والمسلمون لا يزيدون على ثلاثة آلاف ــ فلما بلغ ذلك المسلمين ، أقاموا على معان ليلتين ينظرون في أمرهم ، وقالوا نكتب الى رســول الله صلى الله عليه وسلم نخبره بعدد عدونا ، فاما آن يمدنا بالرجال ، واما أن يأمرنا بأمره فنمضي له ، قال : فشجع

---

١ ــ البداية والنهاية (ج ٧ ص ٦٥) •

٢ ــ المستعربة : العرب التي اعتنقت النصرانية •

الناس عبد الله بن رواحة ، وقال :

يا قوم والله ان التي تكرهون للتي خرجتم تطلبون الشهادة ، وما نقاتل الناس بعدد ولا قوة ولا كثرة ، ما نقاتلهم الا بهذا الدين الذي أكرمنا الله به ، فانطلقوا فانما هي احدى الحسنيين ، اما ظهور واما شهادة،قال:فقال الناس قد والله صدق ابن رواحة فمضى الناس[1] .

قول أبي عبيدة رضي الله عنه

كانوا واثقين بما وعدهم به رسولهم ــ صلى الله عليه وسلم ــ عن الفتوح العظيمة ، فاذا رأوا من ذلك شيئا قالوا : « هذا ما وعدنا الله ورسوله ، وصدق الله ورسوله، وما زادهم الا ايمانا وتسليما [2] »

جاء رجل الى أبي عبيدة يوم اليرموك ، فقال : « اني قد تهيأت لأمري ، فهل لك من حاجة الى رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ **قال** : نعم تقرئه عني السلام ، وتقول : يا رسول الله ، انا قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقا [3] » .

قول خالد رضي الله عنه

وقد بلغوا في قلة الاهتمام بالعدد والاستخفاف بشأن

---

١ ــ البداية والنهاية (ج ٤ ص ٢٤٣) .
٢ ــ الآية ٢٢ من سورة الاحزاب .
٣ ــ البداية والنهاية (ج ٧ ص ١٢) .

العدو وكثرته ، حتى كأنهم من حديد والعدو من طين وخزف ، أو كأنهم مناجل والعلوج [1] حقول ومزارع ، قد اينعت وحان حصادها •

قال المؤرخون : لما أقبل خالد من العراق ، قال رجل من نصارى العرب لخالد بن الوليد : ما أكثر الروم وأقل المسلمين ! فقال خالد :

ويلك أتخوفني بالروم ؟ انما تكثر الجنود بالنصر ، وتقل بالخذلان لا بعدد الرجال، والله لوددت أن الأشقر[2] براء من توجّيه [3] وأنهم أضعفوا في العدد • وكان فرسه قد حفي واشتكى في مجيئه من العراق [4] •

ربعي بن عامر في مجلس يزدجرد

وقد ارتفع هؤلاء وعلت هممهم ، وكبرت نفوسهم ، وعظم الدين والحقيقة والاخلاق في نظرهم حتى صغرت

---

١ ــ العلج : الرجل الضخم القوي من كفار العجم وقد يطلق على الكافر عموما •

٢ ــ الأشقر : فرس خالد وكان قد رقت قدمه في مسيره من العراق الى الشام •

٣ ــ توجّيه : وجى الفرس وتوجا : أصيب بالوجا وهو أن يشتكي الفرس باطن حافره •

٤ ــ البداية والنهاية (ج ٧ ص ٩) •

الدنيا وزخارفها في عيونهم ، وهان أهلها عليهم ، فكانوا يرون الى أبهة الملوك وفخفخة السلاطين ، وما فيه أغنياء هاتين المدنيتين ومترفوها من الاثاث والرياش ، وزخارف الدنيا ، كأنهم يرون الى لعب الصبيان ، وكأنهم يرون الدمى والبنات المصنوعة من ورق أو قماش ، ومواكبها وزينتها لا يهولهم شيء ولا يعظم في عينهم شيء ٠

أرسل سعد قبل القادسية ربعي بن عامر رسولا الى رستم ــ قائد الجيوش الفارسية وأميرهم ــ فدخل عليه وقد زينوا مجلسه بالنمارق[1] المذهبة والزرابي[2]، وأظهر اليواقيت واللآلي الثمينة والزينة العظيمة ، وعليه تاجه وغير ذلك من الامتعة الثمينة ، وقد جلس على سرير من ذهب ، ودخل ربعي بثياب صفيقة ، وسيف وترس وفرس قصيرة ، ولم يزل راكبها حتى داس بها على طرف البساط ، ثم نزل وربطها ببعض تلك الوسائد ، وأقبل وعليه سلاحه ودرعه وبيضته على رأسه ، فقالوا له : ضع سلاحك، فقال: اني لم آتكم وانما جئتكم حين دعوتموني، فان تركتموني هكذا والا رجعت ، فقال رستم : ائذنوا له ٠ فأقبل يتوكأ على رمحه فوق النمارق فخرق عامتها ،

---

١ ــ النمارق: جمع نمرقة بضم النون والقاف وبكسرهما وهي الوسادة٠
٢ ــ الزرابي : جمع زربية بضم الزاي وكسرها وفتحها وهي الطنفسة أي السجادة ٠

فقالوا له : ما جاء بكم ؟ فقال :

الله ابتعثنا لنخرج من شاء من عبادة العباد الى عبادة الله ، ومن ضيق الدنيا الى سعتها ، ومن جور الاديان الى عدل الاسلام ، فأرسلنا بدينه الى خلقه لندعوهم اليه ، فمن قبل ذلك قبلنا منه ورجعنا عنه ، ومن أبى قاتلناه أبدا حتى نفضي الى موعود الله • قالوا وما موعود الله ؟ قال : الجنة لمن مات على قتال من أبى ، والظفر لمن بقي •

فقال رستم : قد سمعت مقالتكم فهل لكم أن تؤخروا هذا الامر حتى ننظر فيه وتنظروا ؟ قال : نعم كم أحب اليكم يوما أو يومين ؟ قال : لا ، بل حتى نكاتب أهل رأينا ورؤساء قومنا ، فقال : ما سن لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن نؤخر الاعداء عند اللقاء أكثر من ثلاث ، فانظر في أمرك وأمرهم ، واختر واحدة من ثلاث بعد الاجل ، فقال : أسيدهم أنت ؟ قال : لا ، ولكن المسلمون كالجسد الواحد يجير أدناهم على أعلاهم • فاجتمع رستم برؤساء قومه فقال :

هل رأيتم قط أعز وأرجح من كلام هذا الرجل ؟ فقالوا : معاذ الله أن تميل الى شيء من هذا ، وتدع دينك الى هذا الكلب ، أما ترى الى ثيابه ؟ فقال : ويلكم لا تنظروا الى الثياب وانظروا الى الرأي والكلام والسيرة ، ان العرب يستخفون بالثياب والمأكل ويصونون الاحساب[1] •

---

١ ــ البداية والنهاية (ج ٧ ص ٣٩ ــ ٤٠) •

المغيرة بن شعبة يجلس على سرير رستم

دخل المغيرة بن شعبة على رستم وقعد معه على السرير فنخروا وصاحوا ، فقال : ان هذا لم يزدني رفعة ولم ينقص صاحبكم ، فقال رستم : صدق [1] ٠

أخلاق الصحابة وسيرتهم التي انتصروا بها

وكان من أكبر أنصار المسلمين أخلاقهم العالية وسيرتهم الملكية ، فكانوا يمتازون بها ويعرفون بها أينما رحلوا ونزلوا ، وكانت هذه الاخلاق طليعة جيوشهم ، تسخر لهم القلوب والنفوس ، وتشرح لهم الصدور قبل أن تعمل سيوفهم ورماحهم ونبالهم ، والذين كانوا يشهدونها ويجربونها كانوا يشهدون أن هؤلاء سيغلبون ويملكون الدنيا ، وأن الفرق بينهم وبين أقرانهم كالفرق بين البهائم والملائكة ٠

روى أحمد بن مروان المالكي في المجالسة بسنده عن أبي اسحاق ، قال :

كان أصحاب رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ لا يثبت لهم العدو فواق ناقة[2] عند اللقاء ٠ فقال هرقل ــ وهو على أنطاكية لما قدمت منهزمة الروم ــ : ويلكم أخبروني عن هؤلاء القوم الذين يقاتلونكم أليسوا

---

١ ــ البداية والنهاية (ج ٧ ص ٤٠) ٠

٢ ــ فواق ناقة : مدة حلبها ٠

بشرا مثلكم ؟ قالوا : بلى • قال : فأنتم أكثر أم هم ؟ قالوا بل نحن أكثر منهم أضعافا في كل موطن ، قال : فما بالكم تنهزمون ؟ فقال شيخ من عظمائهم : من أجل أنهم يقومون الليل ويصومون النهار ، ويوفون بالعهد ، ويأمرون بالمعروف ، وينهون عن المنكر ، ويتناصفون بينهم • ومن أجل أنا نشرب الخمر ، ونزني ، ونركب الحرام ، وننقض العهد، ونغضب ، ونظلم ، ونأمر بالسخط ، وننهي عما يرضي الله ، ونفسد في الارض • فقال : أنت صدقتني [1] •

وسأل هرقل هذا رجلا كان قد أسر مع المسلمين ، فقال:

أخبرني عن هؤلاء القوم ، فقال أخبرك كأنك تنظر اليهم:

هم فرسان بالنهار ، رهبان بالليل ، لا يأكلون في ذمتهم الا بثمن ، ولا يدخلون الا بسلام ، يقفون على من حاربوا حتى يأتوا عليه ، فقال : لئن كنت صدقتني ليملكن موضع قدمي هاتين •

ووصف رجل من الروم المسلمين لرجل من أمراء الروم فقال :

جئتك من عند رجال دقاق ، يركبون خيولا عتاقا ، أما الليل فرهبان ، وأما النهار ففرسان ، يريشون النبل ويبرونها [2] ، ويثقفون القنا [3] ،لو حدثت جليسك حديثا ، ما فهمه عنك لما علا من أصواتهم بالقرآن والذكر • قال فالتفت الى أصحابه وقال : أتاكم منهم ما لا طاقة لكم به [4] •

---

١ ــ البداية والنهاية (ج ٧ ص ١٥) •
٢ ــ يعملون لها ريشا •
٣ ــ يقوّمونها •
٤ ــ البداية والنهاية (ج ٧ ص ١٦) •

حببتهم هذه الاخلاق الى أعدائهم الذين كانوا يقاتلونهم ، حتى ان كان هؤلاء ليؤثرونهم على بني جلدتهم وأبناء ملتهم ، ويتمنون لهم الظفر ، ويدفعون عنهم العدو ، ويتطوعون لمصالحهم •

قال البلاذري في فتوح البلدان : حدثني أبو حفص الدمشقي ،قال : حدثنا سعيد بن عبد العزيز ، قال : بلغني أنه لما جمع هرقل للمسلمين الجموع،وبلغ المسلمين اقبالهم اليهم لوقعة اليرموك،ردوا على أهل حمص ما كانوا أخذوا منهم من الخراج ، وقالوا : قد شغلنا عن نصرتكم والدفع عنكم فأنتم على أمركم ، فقال أهل حمص :

لولايتكم وعدلكم أحب الينا مما كنا فيه من الظلم والغشم ، ولندفعن جنود هرقل عن المدينة مع عاملكم • ونهض اليهود ، فقالوا : والتوراة لا يدخل عامل هرقل مدينة حمص ، الا أن نغلب ونجهد ، فأغلقوا الابواب وحرسوها ، وكذلك فعل أهل المدن التي صولحت من النصارى واليهود ، وقالوا : ان ظهر الروم وأتباعهم على المسلمين صرنا الى ما كنا عليه ، والا فانا على أمرنا ما بقي للمسلمين عدد ، فلما هزم الله الكفرة وأظهر المسلمين ، فتحوا مدنهم وأخرجوا المقلسين [1] ، فلعبوا وأدوا الخراج •

---

١ ــ قلس القوم : استقبلوا الولاة عند قدومهم بضرب الدف والغناء وأصناف اللهو •

ما جرى للمسلمين حين نسوا دينهم

هذا ولما طال على المسلمين الامد ، وقست قلوبهم ، ونسوا وتناسوا ما لاجله بعثهم الله على كثرة من الناس ، وتوافر من أمم الارض ، وهو قوله تعالى : « كنتم خير أمة أخرجت للناس ، تأمرون بالمعروف ، وتنهون عن المنكر ، وتؤمنون بالله [1] » •

ونسوا ما لاجله خرجوا من جزيرتهم ، يُخرجون الناس من عبادة العباد الى عبادة الله وحده ، وصاروا يحكمون الناس حكم الناس على الناس ، وصاروا يعيشون حياة لاهية حرة ، حياة من لا يعرف نبيا ولا يؤمن برسالة ووحي ، ولا يرجو حسابا ، ولا يخشى معادا ، وأشبهوا الامم الجاهلية التي خرجوا يقاتلونها بالامس ، عادوا فقلدوها في مدنيتها واجتماعها ، وسياستها وأخلاقها ، ومناهج حياتها ، وفي كثير مما مقتها الله لاجله وخذلها • وأصبحوا لا هم لهم ولا شغل ، الا الاكل والشرب والتناسل ، وأصبحوا كرعايا الناس ليس لهم فرقان ولا نور يمشون به بين الناس ، وأشبهت ملوكهم وأمراؤهم ، جبابرتها وفراعنتها وأغنياؤهم مترفيها وأكابر مجرميها ، وكاد يسبق فجارهم فجارها ، تحاسد وبغضاء ومنافسة في السلطان ، وتكالب على حطام الدنيا ، واخلاد الى الترف والنعيم ، واعراض عن الآخرة ، وسفك للدماء ، وهتك للاعراض ، وهضم للحقوق وغدر بالعهود والذمم ، وتعد على حدود الله واعانة للظالم ، وجنف [2] في الحكومات والمظالم ، وتبذير لاموال الله ، وعموم الفواحش والمنكرات ، وابتداع للجرائم ، وابداع في الخيانة،مما يحتاج بسطه الى مجلدات ، فهانوا اذا على الله مع أسمائهم الاسلامية ، ورغم وجود الصالحين فيهم ، وظهور بعض الشعائر الدينية ، والواجبات

---

١ ــ الآية ١١٠ من سورة آل عمران •

٢ ــ الجنف : الميل •

الشرعية في بلادهم ، وهانوا على الناس رغم مملكتهم الواسعة وجيوشهم الكثيفة ، وخزائنهم العامرة ، ورغـــم تقدمهم في الحضارة ومظاهرها الكثيرة ، فقل اكرام الناس لهم وهيبتهم اياهم ، وتجاسروا عليهم • قال « رتبيل » ملك رُخج وسجستان ، لرسل يزيد بن عبد الملك وقد جاؤوا اليه يطالبونه بالخراج : « ما فعل قوم كانوا يأتونا : خِماص البطون ، سود الوجوه من الصلاة ، نعالهم خوص ؟ » قالوا : انقرضوا ، قال : « أولئك أوفى منكم عهدا وأشد بأسا ، وان كنتم أحسن منهم وجوها » • ثم لم يعط أحدا من عمال بني أمية ، ولا عمال أبي مسلم على سجستان من تلك الاتاوة شيئا [1] •

فاذا كان هذا في القرن الثـاني فما ظنـك بقرون بعده حتى اذا بلغ السيل الزبى ، وتضاعف كل ما ذكرنا ، وأفسد المسلمون في الارض بعد اصلاحها ، وآسفوا الله بعث عليهم عبادا له أولي بأس شديد فجاسوا خلال الديار • سلط عليهم المغول والتتار ـ أشقى الامم وأخملها وأجهلها وأوحشها ـ فوضعوا فيهم السيف ، وأجروا من دمائهم سيولا وانهارا ، واقاموا من رؤوسهم صروحا وتلالا ، وفعلوا بهم الافاعيل ، وأحلوهم الخـوف ، فتمـكن من قلوبهم الوهن والجبن ، حتى أصبحوا لا يصدقون بهزيمة التتر • قال ابن الاثير : سمع عن بعض أكابرهم أنه قال : « من حدثك أن التتر انهزموا فلا تصدقه » قال : ووقع رعبهم في قلوب الناس ، حتى كان أحدهم اذا لقي جماعة

---

١ ـ فتوح ابلدان ص ٤٠١ طبع بريل •

يقتلهم واحدا واحدا ، وهم دهشون ،ودخلت امرأة من التتر دارا وقتلت جماعة من أهلها ، وهم يظنونها رجلا ، ودخل واحد منهم دربا فيه مائة رجل ، فما زال يقتلهم واحدا واحدا حتى أفناهم ، ولم يمد أحد يده اليه بسوء، ووضعت الذلة على الناس ، فلا يدفعون عن نفوسهم قليلا ولا كثيرا ، نعوذ بالله من الخذلان ، وحكي أن أحدهم أخذ رجلا لم يجد مايقتله به فقال له: ضع رأسك على هذا الحجر ولا تبرح ! فوضع رأسه ، وبقي الى أن أتى التتري بسيف وقتله ، قال ابن الاثير وأمثال ذلك كثيرة .

واليك ما قال ابن الاثير قبل أن يسرد وقائـع هـذه النازلة .

« لقد بقيت عدة سنين معرضا عن ذكر هذه الحادثة ، استعظاما لها ، كارها لذكرها ، فأنا أقدم اليه رجلا وأؤخر أخرى ، فمن الذي يسهل عليه أن يكتب نعي الاسلام والمسلمين ، ومن الذي يهون عليه ذكر ذلك ، فياليت أمي لم تلدني ، ويا ليتني مت قبل هذا وكنت نسيا منسيا ... هذا الفعل يتضمن ذكر الحادثة العظمى والمصيبة الكبرى ، التي عقمت الايام والليالي عن مثلها ، عمت الخلائق وخصت المسلمين ، فلو قال قائل : ان أهل العالم منذ خلق الله تعالى آدم الى الآن لم يبتلوا بمثلهـا لكان صـادقا ، فان التواريخ لم تتضمن ما يقاربها ولا ما يدانيها ... ولعل الخلق لا يرون مثل هذه الحادثة الى أن ينقرض العالم وتفنى الدنيا الخ ... » .

ولكن مثل هذه الحادثة لم تستطع أن تنبه المسلمين ، ولم يفيقوا

من سكرتهم ، ولم يغيروا ما بأنفسهم حتى يغير الله ما بهم ، وحق عليهم قول ربهم : « لعمرك انهم لفي سكرتهم يعمهون [1] » وقوله : « فلولا اذ جاءهم بأسنا تضرعوا ، ولكن قست قلوبهم ، وزين لهم الشيطان ما كانوا يعملون [2] » وقوله : « ولقد أخذناهم بالعذاب فما استكانوا لربهم وما يتضرعون [3] » . وما زالوا منهمكين فيما هم فيه من غفلة ولهو وظلم ، حتى يقول ابن الاثير :

« فالله تعالى ينصر الاسلام والمسلمين نصرا من عنده ، فما نرى في ملوك الاسلام من له رغبة في الجهاد ولا في نصرة الدين ، بل كل منهم مقبل على لهوه ولعبه ، وظلم رعيته ، وهذا أخوف عندي من العدو ، وقال الله تعالى : « واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة [4] ».

ومما يجب أن يلاحظ القارىء ويعتبر بـه المعتبر ، أن المسلمين في هذه الظلماء التي غشيتهم ، والفتنة التي عمتهم ، كلما أفاقوا من سكرتهم ، وأصلحوا شأنهم ، وأزاحوا العلل ، وصمدوا في وجه العدو ، واستنزلوا النصر ، هزموا التتر الذين لم يكونوا يعرفون الهزيمة ، ولا يصدق الناس بانهزامهم ، فقد هزمهم جـلال الدين خوارزم شاه ثلاث مرات ، وهزمهم الظاهر بيبرس غـير ما مـرة ، وهزمهم الملـك الناصر صاحب مصر بمـرج

---

١ ـ الآية ٧٢ من سورة الحجر .
٢ ـ الآية ٤٣ من سورة الانعام .
٣ ـ الآية ٧٦ من سورة المؤمنون .
٤ ـ الآية ٢٥ من سورة الانفال .

الصُّفَّر . وقال السيوطي عن وقعة عين جالوت: « فهُزم التتار شر هزيمة ، وانتصر المسلمون ، ولله الحمد ، وقتل من التتار مقتلة عظيمة ، وولوا الادبار ، وطمع الناس فيهم يخطفونهم وينهبونهم [١] » .

حال المسلمين في القرون الأخيرة :

ولم يزدد المسلمون الا ضعفا ، ولم تزدد أخلاقهم على مر الايام الا انحطاطا وتدهورا ، ولا أحوالهم وشئونهم الا فسادا ، حتى أصبحوا في فجر القرن الرابع عشر الهجري أمة جوفاء ، لا روح فيها ولا دم ، وصاروا كصرح عظيم من خشب منخور قائم لا يزال يؤوي الناس ويهول من بعيد ، أو كدوحة قد تاكلت جذورها ، ونخر جذعها العظيم ولم تنقلع بعد ، وأصبحت بلادهم مالا سائبا لا مانع له ، وأصبحت دولهم فريسة لكل مفترس ، وطعمة لكل آكل ، وحـــق قول النبي صلى الله عليه وسلم :

« يوشك الامم أن تداعى عليكم كما تداعى الاكلة الى قصعتها ، فقال قائل : أو من قلة نحن يومئذ يا رسول الله ؟ قال بل أنتم يومئذ كثير ، ولكنكم غثاء كغثاء السيل ، ولينزعن الله من صدور عدوكم المهابة منكم ، وليقذفن في قلوبكم الوهن، فقال قائل : يا رسول الله وما الوهن ؟ قال حب الدنيا وكراهية الموت [٢] » .

واستمر المسلمون بهذا الحال وزيادة ، حتى أغار عليهم في القرن الثامن عشر المسيحي الامم الاوربيـــة النصرانية الجاهلية ، المتحضرة الوحشية ، الكاسية العارية [٣] ، فسلموها مفاتيح ملكهم ، واعتزلوا في

---

١ ـ تاريخ الخلفاء .

٢ ـ رواه أبو داود عن ثوبان رضي الله عنه .

٣ ـ المطلع على تاريخ هذه الامم وطبيعتها يصدق هذه الصفات المتناقضة .

مصلحتها عن قيادة العالم .

وقد بلغ المسلمون من الانحطاط الخلقي ، منزلة أن وجد فيهم أفراد خانوا أمتهم ، وشروا [1] بلادهم بثمن بخس دراهم معدودة ، وتطوعوا في جنود العدو يفتحون بلادهم للاجنبي على حسابهم .

ولكن هذا الهجوم الغربي كان أشد تأثيرا ، وأعمق أثرا ، وأبعد مدى ، من الهجوم الشرقي ـ المغولي والتتري ـ فكاد يخمد كل جمرة في قلوبهم ، لم تخمدها العواصف طيلة هذه القرون ، وبقيت كامنة في الرماد تخبو مرة وتلتهب أخرى .

ابتلاء المسلمين بالشك والذل النفسي

فتش عقلاؤهم [2] عن منابع القوة الكامنة في نفوس المسلمين ، وقلوبهم ، فوجدوا أن أكبر منبع للقوة والحياة هو « الايمان » وشهدوا ما فعل الايمان قديما ، وما أظهر من معجزات وخوارق وما هو خليق بأن يفعل ، فعادوه وسلطوا على المسلمين عدوين هما أفتك بهم وأضر لهم من المغول والتتار ، ومن الوباء الفاتك ، الاول : هو الشك .. وضعف اليقين الذي لا شيء أدعى للضعف والجبن منه .. والثاني : ما نعبر عنه بالذل النفسي [3] وهو أن صار المسلمون يشعرون بالذلة والهوان في داخل أنفسهم ، وفي أعماق قلوبهم ، ويزدرون بكل ما يتصل بهم من دين وتهذيب وأخلاق ، ويستحيون من أنفسهم ، ويؤمنون بفضل الاوربيين في كل شيء ، ويعتقدون فيهم كل خير ، ولا يكادون يعترفون بنقص وعيب في ناحية من نواحي الحياة ، ولا يصدقون بانهزامهم

---

١ ـ شروا : باعوا .

٢ ـ أي عقلاء الاعداء .

٣ ـ وهو ما اعتاد الكتاب العصريون بتسميته « بمركب النقص » .

وفشلهم في ساعة من ساعات الدهر، واذا تمكن هذا الذل من نفوس أمة، فقد ماتت وان كنت تراها تغدو وتروح ، وتأكل وتعيش .

ابتلاء المسلمين بعبادة المادة وحب الدنيا

وابتلي المسلمون في هذه المـرة بتأثير الحضارة الغربيـــة .. والفلسفة الغربية ، بعبادة المادة وحب الدنيا ، والجري وراء النفع العاجل ، وتقديم المصالح الشخصية والمنـــافع المادية على المبـــادىء والاخلاق ، شأن الامم الاوربية الجاهلية ، فكانت هذه الاخلاق وهذه النفسية والتربية مانعا من الجهاد في سبيل الله واعلاء كلمته ، ومن تحمل المشاق ، وتجرع المرائر ، ومكابدة الاهوال والخسائر في سبيل المبدأ الصحيح والعقيدة السامية .

أسوأ جيل عرفه تاريخ الاسلام

كان نتيجة هذا كله أن ظهر جيل في المسلمين : متنور الذهن ، ولكن مظلم الروح . أجوف القلب . ضعيف اليقين . قليل الدين . قليل الصبر والجلد . ضعيف الارادة والخلق . يبيع دينه بدنياه . وآجله بعاجله . ويبيع أمته وبلاده بمنافعه الشخصية ، وبجـاه وعزة وهمية . ضعيف الثقة بنفسه وأمته . عظيم الاتكال . كثير الاستناد الى غيره : (واذا رأيتهم تعجبك أجسامهم وان يقولوا تسمع لقولهم كأنهم خشب مسندة يحسبون كل صيحة عليهم [١]) .

هؤلاء هم الذين نشروا في المسلمين الجبن والوهن ، وصرفوا المسلمين عن الاتكال على الله ، ثم الاعتماد على أنفسهم الى الاعتماد على

---

١ ــ سورة المنافقون : ٤ .

غيرهم والتكفف لديهم والالتجاء في مواقع الخطر اليهم ، وأطفئوا في قلوبهم شعلة الجهاد في سبيل الله ، والحمية للدين ، وأبدلوها بالوطنية العليلة ، والقومية الناعسة ، وأبدلوا جنونها الذي بعث الحكمة من مرقدها وأطلق العقل من اساره ، والذي تمكن مما لم يتمكن منه العقل والعلم في آلاف من السنين ، أبدلوها هذا « الجنون » الحكيم بعقل ناقص عليل ، لا يعرف الا الموانع والعراقيل ٠

وقد ظهر هذا التحول العظيم في العقيدة والنفسية ، والافلاس في الروح والايمان ، في شر مظاهره في حرب فلسطين ، فكان فضيحة للعالم العربي في القرن الرابع عشر الهجري ، كما كان انكسار المسلمين وفشلهم الذريع أمام الزحف التتاري فضيحة للعالم الاسلامي في القرن الثامن ، فقد اجتمعت سبع دول عربية لتحارب الصهيونية وتدافع عن وطن عربي اسلامي مقدس ، عن القبلة الاولى ، وعن المسجد الثالث الذي تشد اليه الرحال ، وعن جزيرة العرب والاقطار العربية التي أصبحت مهددة بالخطر اليهودي ، فكانت حرب فلسطين دفاعا عن حياة وشرف وعن دين وعقيدة ، وكان العالم العربي بأسره ازاء دويلة صغيرة لم تستقر بعد ، واتجهت الانظار الى مسرح فلسطين ، وانتظر الناس معركة مثل معركة اليرموك ، أو وقعة مثل وقعة حطين ، ولماذا لا ينتظرونها والامة هي الامة ، والعقيدة هي العقيدة ، مع زيادة فائقة في العدد والعدد ٠ فلماذا لا ينتصر العرب وهم عالم ؟ ولماذا لا يقضون على عدوهم وهو حفنة من المشردين ؟

ولكنهم نسوا ما فعلت الايام وما فعلت التربية ، وما فعلت الدول والزعامة السياسية ، وما فعلت المادية بالامة العربية في هذا العصر ٠ لقد تقدم العرب الى معركة اليرموك حقا ، ولكن بغير الايمان الذي تقدم به أسلافهم الى هذه المعركة في العصر الاول ٠

لقد تقدموا الى وقعة كانت وقعة حاسمة كحطين ـ لو ظفر

العرب ــ ولكنهم تقدموا بغير الروح التي تقدم بها صلاح الدين وجنده المؤمن المجاهد • تقدموا بقلوب خاوية تكره الموت وتحب الحياة ، وأهواء مشتتة ، وكلمة متفرقة ، يريدون أن يربحوا النصر ولا يخسروا شيئا ، وأن يحافظوا على شرفهم ولا يخاطروا بشيء ، كل يعتقد أن غيره هو المسئول عن الحرب ، وعن الغلبة والهزيمة ، ثم هم يقاتلون وحبلهم في يد غيرهم ، اذا أرخى قليلا تقدموا ، واذا جره تأخروا ، واذا قال حاربوا حاربوا ، واذا قيل اصطلحوا اصطلحوا ، وما هكذا يكتسب الظفر ويقهر العدو •

أوردها سعد ، وسعد مشتمل ما هكذا يا سعد تورد الابل

وبقي العالم متطلعا الى ما قرأه في تاريخ الجهاد الاسلامي من روائع الايمان ، وخوارق الشجاعة والصبر ، والاستهانة بالحياة والبسالة والبطولة ، والاستقبال للموت ، والتمني للشهادة ، وحسن النظام ، وروح الاطاعة والايثار ، فلم ير من ذلك شيئا ، ، الا لمعات واشراقات للايمان كانت تظهر من بعض المتطوعين في حرب فلسطين ، والاخوان المجاهدين ، تجندوا وتطوعوا للحرب بدافع الايمان ، والدفاع عن الاسلام ، وحملتهم الحمية الدينية على المغامرة ، ودفعتهم الى ميدان الحرب ، فشرفوا الدين وأرعبوا القلوب ، وأعادوا التاريخ القديم ، وبرهنوا على أن الايمان لا يزال المنبع الفياض للقوة والنظام ، وأن عنده من القوة والنفوذ ، والتنظيم وروح المقاومة والجهاد ، ما ليس عند الدول الكبيرة المنظمة •

خاتمة

لقد ثبت مما ذكرناه في هذا المقال ، وما سردناه من الامثلة والاخبار ، وشهادات التاريخ ومشاهدات هذا العصر ــ وما حرب فلسطين منا ببعيد ــ أن المد والجزر في تاريخ الاسلام وأحوال المسلمين تابعان

للمد والجزر في الايمان ، وقوة معنوياتهم التي تنبثق من الدين ، وأن منبع قوة هذه الامة في باطنها ، وهو القلب والروح ، فاذا عمر القلب بالايمان بالله ورسوله واليوم الآخر ، وتزكت الروح بتعاليم الدين والاخلاق الاسلامية ، وجاش الصدر بالحمية الدينية جيشان المرجل ، وأخذ المسلمون عدتهم من القوة المادية ، وأعدوا للعدو ما استطاعوا وأدركوا ما عليه العالم من جور وظلم ، ومن جهالة وسفاهة ، وضلال في الدين والدنيا،وعلموا أن الزمان قد استدار كهيئته يوم جاء الاسلام، والعالم قد عاد جاهليا كما بدأ : « ظهر الفساد في البر والبحر بما كسبت أيدي الناس [1] » • فانعطفوا عليه ورأوا كأن العالم في حريق ولا ماء الا عندهم ، فسعوا به يطفئون النار التي عمت الدنيا ، ونسوا في سبيل ذلك لذاتهم ، وتكدر عيشهم ، وطار نومهم ، وجن جنونهم ، فعند ذلك يتحولون قوة خارقة للعادة ، لا يغلبها العالم ، ولو سعى بأسره وجميع شعوبه وجنوده، ودوله، ويصيرون قضاء الله الغالب وقدره المحتوم وكلمته العليا •

« ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين • انهم لهم المنصورون • وان جندنا لهم الغالبون [2] » •

« ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الاعلون ان كنتم مؤمنين [3] » •

---

١ ـ الآية ٤١ من سورة الروم •
٢ ـ الآيات : ١٧١ ـ ١٧٣ من سورة الصافات •
٣ ـ الآية ١٣٩ من سورة آل عمران •

بين الصورة والحقيقة[1]

ان كل شيء له صورة وحقيقة، وبينهما فرق كبير رغم الشبه العظيم ، تميزون بينهما بسهولة في حياتكم ، وتعاملون الحقيقة بما لا تعاملون به الصورة ، وأضرب لذلك مثلين: هذه مُثُل للثمار المصنوعة من الخزف، تتراءى للناظر كأنها تفاح ، ورمان ، وبرتقال ، وعنب ، وموز ، في لونها وشكلها ، ولكن أين الصورة من الحقيقة وأين طعم هذه الثمار ورائحتها ؟ انها ليست الا للزينة أو المثال .

انكم ترون في المتحف كل نوع من السباع والانعام ، والطيور الجميلة ، والعصافير الصغيرة ، ففيها الاسد ، والذئاب ، والافيال والدباب ، وفيها كل طائر جارح ، وكل سبع مخيف ، ولكنها جثث هامدة لا حراك بها ،

---

١ ـ محاضرة ألقاها المؤلف في حفل عام ، حضره آلاف من المسلمين ، عقدته جماعة التبليغ في سنة ١٩٤٩ م في لكنؤ (الهند) ، ونقلها الى العربية ابن أخ المؤلف الاستاذ محمد الحسني .

وأجساد ميتة محشوة بالليف والقطن ، ليس فيها رمق من حياة ، وقوة تهجم بها وتصول ، حتى لا تحس منها من أحد ولا تسمع لها ركزا ٠

ان الصورة لا تستطيع أن تسد مكان الحقيقة وتنوب عنها ، ولا يمكنها أن تمثل دور الحقيقة في الحياة وتأتي بما تأتي به من عمل ونشاط ، ولا يمكن أن تقاوم الحقيقة وتكافحها ٠ فاذا وقع صراع بينهما انهارت الصورة ، ولا يمكنها أن تحتمل عبء الحقيقة ، فاذا وكل أحد الى الصورة وظيفة الحقيقة أو عوّل عليها في مهمة خانته الصورة وخذلته أحوج ما يكون اليها ٠

والصورة ولو كانت مهيبة هائلة تغلب عليها الحقيقة ولو كانت ضعيفة متواضعة ، لان الحقيقة الحقيرة أقدر وأقوى من الصورة العظيمة المهيبة ، وان الولد يقدر أن يسقط الاسد الميت المحشو بالليف والقطن بيده الضعيفة الناحلة ، لان الولد يحمل حقيقة ولو حقيقة صغيرة ، والاسد ليس الا صورة ولو كانت صورة مهيبة ٠

ان هذا العالم الذي نعيش فيه عالم الحقيقة والامر الواقع ، وقد خلق الله كل شيء على حقيقته : فللمال حقيقة ، وحبه فطري طبعي ، ولاجل ذلك وردت عنه الاحكام ووضع الله فيه التأثير والجذب ٠ وللاولاد حقيقة ،

والحنان اليهم وحبهم فطري ، ولاجل ذلك وردت الاحكام في الشرع عن تربيتهم وتعليمهم • وكذلك للحاجات الطبيعية والميول الفطرية حقيقة لا تجحد ، ولا تغلب تلك الحقائق الا حقيقة أقوى ورغبة أعظم وأشد •

اننا نحتاج الى حقيقة الاسلام والايمان للظفر على الحقائق المبثوثة في العالم • أما صورة الاسلام فهي عاجزة عن أن تقهر هذه الحقائق وتنتصر عليها ، وان كانت حقائق ممزوجة بالباطل ، لان الصورة المجردة لا تنتصر على أي حقيقة •

ولذلك نرى اليوم بأعيننا أن صورة الاسلام أصبحت لا تغلب على الحقائق المادية الحقيرة ، لان الصورة ولو كان ظاهرها مقدسا رائعا ليس لها سلطان وتأثير ، وأن صورة اسلامنا وصورة كلمتنا وصلاتنا اليوم لا تقدر أن تتغلب على عاداتنا الحقيرة ، وتقهر شهواتنا الخسيسة ، أو تثبتنا على جادة الحق عند البلاء والامتحان •

ان الكلمة التي كانت من قبل ذات سلطان عجيب على القلوب والارواح ، وكانت تهون على الناس ترك المألوفات وقهر الشهوات ، والشهادة في سبيل الله وبذل الارواح والانفس لله ، واحتمال المكاره وتجرع المرائر في سبيل الله ، هي عاجزة عن أن تحمل الناس على ترك فرشهم بعد أن استغرقوا في النوم طول الليل ، ويقوموا لصلاة الفجر ! نعم ، الكلمة التي كانت تغلب على شهوة الخمر ، فتحول بين الانسان وبين الكأس وهي على راحته ، فيمتنع عن شربها لان الدين يمنع من ذلك ، ولان الكلمة تأبى عليه أن يشرب الحرام ، ها هي الآن قد أصبحت لا تملك أمرا ولا نهيا •

سرّح طرفك في تاريخ الاسلام وتجول في فصوله وأوراقه ، يظهر

لك أن كلمة الاسلام التي كان الصحابة وكان المسلمون في القرون الاولى يتلفظون بها ، كانت ذات حقيقة ثابتة ، وكانت كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء تؤتي أكلها كل حين باذن ربها • وكلمتنا نحن ألفاظ مجردة ، ونطق فارغ ، ولاجل ذلك ترى عدم تأثيرها في حياة الامة • ثم اننا مع ذلك نحاول أن نطبق حياة أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم على حياتنا ، ونرجو أن تؤتي هذه الكلمة أكلها كل حين ، وتحدث ما أحدثت في الماضي، حتى اذا لم يكن ذلك بطبيعة الحال تسائلنا وقلنا: «ألسنا مسلمين؟ ألسنا نصلي ونصوم؟ ألا نتلفظ بكلمة الاسلام ونرددها صباح مساء؟! فلماذا هذا الفرق الهائل بين عهدنا وعهد الخلفاء الراشدين؟! ولماذا هذا البون الشاسع بين حظنا وحظهم ؟! وأين ثمرات شجرة الايمان ؟! وأين نتائج الصلاة والصيام ؟! وأين ما وعد الله من النصر المبين ، والاستخلاف والتمكين ؟!

لا تخدعنا أنفسنا !! ولنعلم أنهم كانوا أصحاب جد وحقيقة في الدين • لقد كانت كلمتهم حقيقة ، وكانت صلاتهم حقيقة ، ونحن متجردون عن هذه الحقائق ، فرجاء أن تثمر الصورة ما أثمرت الحقيقة وتغني غناءها ، انما هو وهم وخيال ، وضرب من المحال •

أما قرأتم في التاريخ أن خبيبا رضي الله عنه رفعوه على الخشبة ، وتناولوه بالرماح والاسنة ، حتى تمزق جسمه وهو قائم لا يشكو ولا يئن ، فقالوا له: « أتحب أن يكون محمد صلى الله عليه وسلم مكانك ؟ » فيضطرب ويقول : « والله لا أحب أن يفديني بشوكة يشاكها في قدمه ! » يا أبناء الاسلام ! ان الذي ثبته في هذا المكان ، وألهمه أن ينطق بمثل هذه الكلمة العريقة في حب الرسول

هل هي صورة الاسلام ؟ لا ، بل هي الحقيقة التي مثلت بين عينيه الجنة ، والرماح تنوشه وتعبث بجسمه ، وناجته ، وقالت : صبرا يا خبيب ، فما هي الا لمحات وثوان ، وها هي الجنة تنتظرك ، ورحمة الله ترتقبك ، فاذا احتملت آلام هذا الجسد الفاني والحياة الزائلة العابرة نلت السعادة الدائمة ، والحياة الباقية .

هذه هي اللذة الروحية وحقيقة الحب والايمان التي أبت على خبيب أن يطلق ويؤذى رسول الله صلى الله عليه وسلم بشوكة في قدمه ، فهل تستطيع الصورة أن تحمل صاحبها على هذا الاخلاص والتفاني ، والثبات على العقيدة والصبر على الموت ؟! كلا ان الصورة لا تستطيع أن تقاوم الشدائد والآلام ، بل حتى الخيالات والاوهام . وقد بدا لنا ذلك في الاضطرابات الطائفية الماضية في الهند ، فان أناسا من المسلمين قد غيروا صورة الاسلام خوفا مما مر بخاطرهم من الفزع ، وخشية الموت ، وما دار في رؤوسهم من معارك خيالية حامية ، واختاروا شعار الكفر،وذلك لان هؤلاء الناس قد كانوا متحلين بالصورة، فارغين عن الحقيقة ..

هاجر سيدنا صهيب رضي الله عنه ، فلما كان في الطريق اعترضته جماعة من مشركي مكة وقالوا له :

أتيتنا صعلوكا حقيرا ، فكثر مالك عندنا ، وبلغت الذي بلغت ، ثم تريد أن تخرج بمالك ونفسك ؟ والله لا يكون ذلك ، وهناك قامت المعركة بين حقيقة الاسلام وحقيقة المال ، ودارت بينهما رحى الحرب ، فانتصرت حقيقة الاسلام على ضدها ، وقال لهم صهيب : « أرأيتم ان جعلت لكم مالي أتخلون سبيلي ؟ قالوا : نعم قال : فاني قد جعلت لكم مالي [1] » وهكذا انطلق صهيب بدينه، متجردا من ماله ، فرحا مسرورا كأنه لم يفقد شيئا ، ولم يخسر شيئا .

وخرج سيدنا أبو سلمة بزوجه وابنه يريد المدينة ، فلما رآه رجال من بني المغيرة قاموا اليه فقالوا : هذه نفسك غلبتنا عليها ، أرأيت صاحبتنا هذه ، علام نتركك تسير بها في البلاد ؟! ونزعوا خطام البعير من يده ، وأخذوها منه ، وأخذ بنو عبد الاسد سلمة ولده الصغير، هناك اصطدمت حقيقة الاسلام بحب الزوج والولد ، فما لبثت أن انتصرت عليه ، وغادر أبو سلمة زوجه وولده تحت رعاية الله ، وهاجر وحيدا ، هل الصورة تستطيع ذلك ؟ وهل يقدر أصحابها على ترك الزوجات والاولاد في سبيل العقيدة والدين ؟ كلا ! بل سمعنا أن أناسا قد

---

١ ـ سيرة ابن هشام (ج ٢ ص ١٢١) .

ارتدوا عن دينهم للمال ، والازواج ، والاولاد ، وغير ذلك من متع الدنيا وزخارفها ٠

كان أبو طلحة مقبلا على صلاته ، فاذا طائر يدخل في بستانه ثم لا يجد الطريق للخروج ، ويميل اليه قلب أبي طلحة، فلما انصرف من صلاته تصدق بهذا البستان، لانه لا يحب أن يشغله شيء عن حقيقة صلاته ، وينازع قلبه !

ان للبستان حقيقة ، ولثمره وأكله حقيقة ، ولا تغلب هذه الحقائق الا حقيقة الاسلام ، وان صلاتنا اليوم مجردة عن الحقيقة ، ولذلك لا تقدر أن تقاوم أدنى الحقائق المادية ٠

لقد كان في حرب اليرموك بضعة آلاف من المسلمين ، وأما الروم فقد كان عددهم يبلغ مائتي ألف أو يزيدون ، فاذا نصراني كان يقاتل تحت لواء المسلمين يقول: ماأكثر الروم وأقل المسلمين، فيقول خالد رضي الله عنه: والله لوددت أن الاشقر براء من توجّيه ، وأنهم أضعفوا في العدد(١) ٠

بم كان خالد رضي الله عنه مطمئنا ، ولم لم يشغل خاطره هذا العدد الهائل ولم لم تكبر في عينه جنود الروم

---

١ ـ الاشقر فرس خالد وكان قد حفا واشتكى في مجيئه من العراق ٠ (البداية والنهاية ج ٨ ص ٩) ٠

الكثيفة ذلك ؟ لانه كان مؤمنا بالله واثقا بنصره • ولانه كان يعلم أنه على الحقيقة ، وان مقابله صورة فحسب ، وأن الروم صورة فارغة عن الحقيقة ، وكان يعتقد أن الصورة مهما كثرت ، لا تقدر أن تقاوم حقيقة الاسلام •

لا شك أننا نتلفظ بكلمة الشهادة والتوحيد ، ومنا من يعرف ما يقول ، ولكن الصورة شيء والحقيقة شيء آخر، ان أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم والمسلمين الصادقين كانوا على حقيقة هذه الشهادة ، فاذا قالوا لا اله الا الله اعتقدوا أنه لا اله غيره ، ولا رب غيره ، ولا رازق غيره ، ولا نافع ولا ضار الا هو ، له الملك والحكم ، والخلق والامر ، وبيده ملكوت كل شيء ، يجير ولا يجار عليه ، وأخلصوا له الحب ، والخوف ، والسؤال والرجاء ، والعبادة ، والدعاء ، وأصبحوا عبادا حنفاء ، شجعانا أقوياء ، لا يهابون العدو ، ولا يخافون الموت ، ولا يبالون بلومة لائم •

نرجع الى أنفسنا ، ونفكر هل هذه هي الحقيقة متغلغلة في أحشائنا ، ومتسربة في عروقنا وشراييننا ، وهل غرس حياتنا يسقى بهذا الماء ؟ معذرة وعفوا أيها السادة ، انا نخاف أن لا يكون الامر كذلك ، وأن نصيب الصورة في حياتنا أكثر من نصيب الحقيقة ، وذلك موضع الضعف في حياتنا ، وسر شقائنا ومصائبنا ، اننا جميعا

نؤمن أن الآخرة حق ، والجنة حق ، والنار حق ، والبعث بعد الموت حق ، ولكن هل اننا حاملون لحقيقة الايمان كأصحاب النبي صلى الله عليه وسلم ومن تبعهم باحسان ؟ وقد سمعنا أن أحدهم سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : قوموا الى جنة عرضها السموات والارض فرمى بما معه من التمر وقال : لئن أنا حييت حتى آكل تمراتي هذه ، انها لحياة طويلة ، وقاتلهم حتى قتل ، لان الجنة كانت عنده حقيقة لا يشك فيها ، فمن أيقن يقول كأنس ابن النضر : اني لاجد ريح الجنة من دون أحد .

أتى رجل من المسلمين يوم اليرموك وقال للامير : اني قد تهيأت لامري ، فهل لك من حاجة الى رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ قال نعم ! تقرئه عني السلام وتقول : يا رسول الله انا قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقا .

أفيقول هذا الا من يوقن أنه مقتول في سبيل الله ، وملاق رسول الله ومجتمع به في نعمة الله ، وأنه مكلمه ومحدثه ، فاذا حصل لرجل مثل هذا اليقين ، فما الذي يمنعه من استقبال الموت ، وما الذي يحول بينه وبين الشهادة ؟!

ان أكبر انقلاب وقع في تاريخ هذه الامة ، هو أن الصورة احتلت مكان الحقيقة ، واستولت على حياة الامة ، وذلك من عهد بعيد في

التاريخ ، والذين كانوا يرون الصورة من بعيد يعتقدون أنها الحقيقة ، ولذلك يذعرون ويشفقون من قربها ، فكانت هذه الصورة الاسلامية كمجدار ينصبه الفلاح في حقله كيلا يحل فيه الطير والوحش ، ولا تزال الطيور والوحش تظن أنه انسان ، أو حارس ، فلا تقربه حتى يتشجع غراب ذكي ، أو حيوان جريء فيجد أنه ليس بشيء ، هنالك تدخل الطيور والوحش في هذا الحقل وتعيث فيه ، وتتلف زرعه ، وقد وقع للمسلمين نفس الحادث ، لقد حرستهم صورة الاسلام مدة طويلة جدا ، فلم تجترىء عليهم أمم العالم ، ولم يدر بخلد أحد أن يمتحن هذا الشبح المخيف ويتحققه ·

ولكن حتى متى ؟ لما أغار التتار على بغداد ، افتضح المسلمون وظهر افلاسهم في الروح والقوة المعنوية، من ذلك الحين أصبحت الصورة عاجزة عن أن تحافظ عليهم ، وتذود عنهم المكروه وتدفع عنهم غارات الامم ، فان الصورة لا تقوم الا على الجهل والغرور ، فاذا انكشف الغطاء وزاح الستار ، تبين الصبح لذي عينين ·

وان ما نرى ونقرأ في تاريخ الاسلام من أخبار انكسار المسلمين وهزيمتهم في ميادين القتال ، ان كل ذلك أخبار انخذال الصورة وفضيحتها لا غير ، وقد فضحتنا الصورة في كل معركة وحرب ومقاومة واصطدام ، ولكن الذنب علينا ، حملنا الحقيقة على ظهر الصورة ، فلم تستطع حمله ولم تمسكه،وعقدنا الآمال الكبار بالصورة الضعيفة فخيبت رجاءنا ، وكذبت أمانينا ، وخذلتنا في الميدان ·

تكرر الصراع بين صورة الاسلام وشعوب العالم وجنودها ، وفي كل مرة تنخذل وتنهزم الصورة ، ويعتقد

الناس أنه هزيمة الاسلام وخذلانه ، وبذلك هان الاسلام في عيون الناس وزالت مهابتــه عن القلوب ، ولا يــدري الناس أن حقيقة الاسلام لم تتقدم الى ساحة الحرب منذ زمن طويل ، ولم تنازل أمم العــالم ، وان الذي يبرز في الميدان هو صورة الاسلام لا حقيقته ، وخليق بالصورة أن تنهزم ، وتضمحل أمام الواقع والامر الجد .

هاجمت بعض الدول الاوربية في الحرب الاولى تركيا الاسلامية ، تركيا التي أرعبت أوربا كلها،وهزمت دولها مرة بعد مرة ، وكانت تركيا في هذه المرة حاملة لصورة شاحبة للاسلام ، وقد فقدت شيئا من حقيقة الايمان ، ففشلت في المقاومة وفقدت كثيرا من ممتلكاتها .

واجتمع سبع دول عربية لمحاربة الصهيونية في فلسطين، وكانت هذه الدول العربية عليلة الروح ، وقد أطفأت المادية الاوربيــة جمرة القلوب وشعلة الجهــاد في سبيل الله ، وحببت اليها الحياة واللذات ، ثم انها تتخلف تخلفا كبيرا في المعدات الحربية والتنظيمات العصرية ، فكانت الحرب بين العرب المسلمين واليهود الصهيونيين صراعا بين صورة الاسلام وحقيقة القوة والتنظيم والحماسة ، فكانت نتيجة هذه الحرب نتيجة كل صراع بين الصورة والقــوة .

ان الصورة لها منزلة ومكانة عند الله تعالى ، لانه قد عاشت فيها الحقيقة قرونا طويلة،ويحبها الله لانها صورة أوليائه ومحبيه ، وكذلك نعرف لها الفضل ، لان الانتقال من صورة الاسلام الى حقيقة الايمان أسهل بكثير من الانتقال من حقيقة الكفر أو صورته الى حقيقة الايمان والاسلام،فلنحافظ على هذه الصورة ولنتمسك بها،ولكن لا ينبغي أن نقنع بها ونستهين بالحقيقة والروح ·

يا أبناء الاسلام ، ان وعد الله من النصرة والفتح في الدنيا ، والنجاة والغفران في الآخرة ، كل ذلك محصور في حقيقة الاسلام ، وذلك قوله تعالى : « ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الاعلون ان كنتم مؤمنين (١) » لا شك فان الخطاب في هذه الآية للمسلمين،ومع ذلك اشترط الايمان للعزة في الارض والعلو والشوكة ، وقال في موضع آخر : « انا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا ويوم يقوم الاشهاد (٢) » وقال أيضا : « وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الارض كما استخلف الذين من قبلهم ، وليمكننّ لهم دينهم الذي ارتضى لهم ، وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا ، يعبدونني لا يشركون بي شيئا ، ومن كفر بعد ذلك فأولئك هم

---

١ ـ الآية ١٣٩ من سورة آل عمران ·
٢ ـ الآية ٥١ من سورة غافر ·

الفاسقون [1] » ورغم أن جميع تلك الوعود كانت على أساس الايمان والاعمال الصالحة اشترط أن يكون في المسلمين حقيقة الايمان والتوحيد ٠

ان أكبر مهمة دينية في هذا العصر ، وأعظم خدمة ، وأجلها للامة الاسلامية، هي دعوة السواد الاعظم للامة وأغلبيتها الساحقة الى الانتقال من صورة الاسلام الى حقيقة الاسلام ، فلمثل هــذا فليعمل العاملون ويبذلوا جهودهم ومساعيهم في بث روح الاسلام في جسم العالم الاسلامي، ولا يدخروا في ذلك وسعا ، فبذلك يتحول شأن هذه الامة ، وفي نتيجته شأن العالم بأسره ، فان شأن العالم تبع لشأن هذه الامة ، وشأن الامة تبع لحقيقة الاسلام ، فاذا زالت حقيقة الاسلام من الامة المسلمة ، فمن يدعو العالم الى حقيقة الاسلام ، ومن ينفخ فيه الروح ؟ قال سيدنا عيسى عليه السلام لاصحابه : « أنتم ملح الارض ، فاذا زالت ملوحة الملح فماذا يملح الطعام ؟ » ٠

قد أصبحت حياتنا اليوم جسدا بلا روح ، لان السواد الاعظم للامة مجرد عن الروح ، فارغ عن الحقيقة ، فكيف تعود الروح والحقيقة في الحياة الانسانية مرة أخرى ؟!

ان في هذا العالم أمما لا تزال فارغة عن الحقيقة والروح منذ أقدم العصور الى يومنا هذا ، ولم يبق فيها الا عدة معتقدات مرسومة، وبضع صور حقيرة مجردة عن الروح،وانتهت حياتنا الدينيةوالروحية الحقيقية،حتى ان انشاء أمة بأسرها أيسر من اصلاح هــذه الامم وتجديد

١ ـ الآية ٥٥ من سورة النور ٠

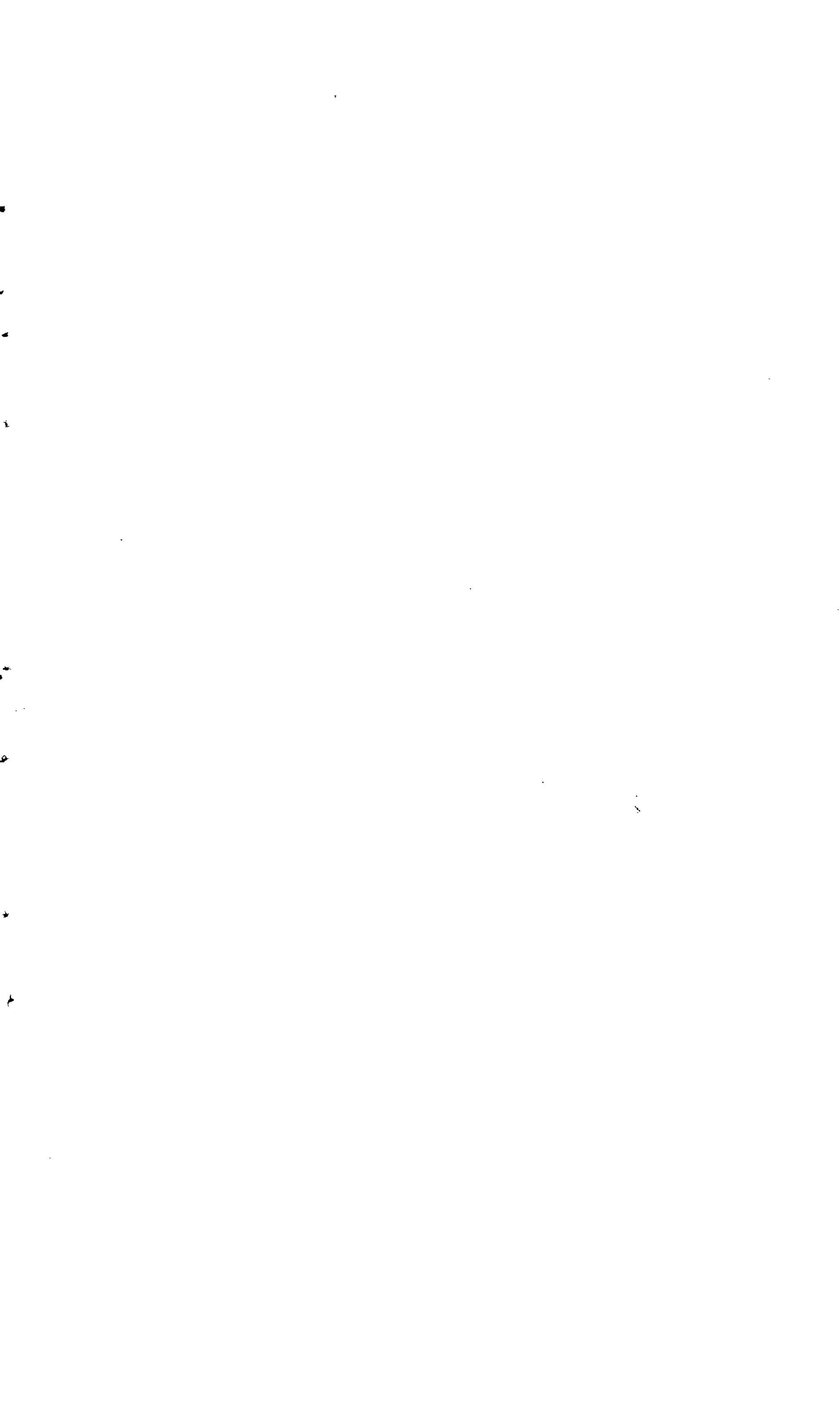
حياتها الدينية والخلقية ، والذين نهضوا لاصلاحها ، وبذلوا قصارى جهدهم في هذا السبيل قد أخفقوا ولم يفلحوا في مهمتهم ، رغم الوسائل العظيمة الكثيرة التي حدثت في هذا العهد من الطبع والنشر ، والتأليف والاذاعة ، والتعليم والتربية ، وطرق الدعاية والتأثير ، وذلك لان عروة دينها قد انفصمت انفصاما تاما ، وانقطعت علاقتها عن منبع الحياة الدينية ، والخلقية والروحية .

أما الامة الاسلامية فلا تزال ــ على علاتها وضعفها ــ مستمسكة استمساكا ما بعروة الدين ، وهي الايمان بالله والرسول ، واليقين بالدار الآخرة والحساب ، لم تتركها البتة ، ولم تنقطع عنها انقطاع الامم الاخرى ، بل ان ايمان كثير من عامة المسلمين ودهمائهم يُزري بايمان كثير من خواص الامم الاخرى ، وعليتهم ، ويفوقه متانة ورسوخا وحماسة، ثم ان كتابها لا يزال في يدها لم يتناوله التحريف ، ولم يعبث به العابثون كما فعلوا بالصحف الاولى ، ولا تزال سيرة الرسول وأسوته الحسنة بمتناول يدها ، فالدعوة الى الدين ميسورة ، والتجديد ممكن ، والقلوب متهيئة ، وجمرة الايمان سريعة الاتقاد، والشقة بين الصورة والحقيقة قصيرة ، والقنطرة بينهما الدعوة الى تجديد الايمان ، والرجوع الى الدين ، والتشبع

بروحه والتحلي بحقيقته .

لست قانطا من ظهور حقيقة الاسلام في هذا العصر ، ولا نصدق أبدا بأن الزمان قد تغير والمسلمين قد ابتعدوا جدا عن روح الاسلام ، فلا أمل في حقيقة الاسلام وغلبتها من جديد ، انظروا الى ورائكم ترون جزر حقيقة الاسلام قائمة منتشرة في فجر التاريخ ، وان الحقيقة لم تزل تطفو كلما رسبت وتظهر كلما اختفت ، وكلما ظهرت حقيقة الاسلام وتجلت في ناحية من نواحي العالم الاسلامي أو عصر من عصور التاريخ الاسلامي ، غلبت وانتصرت ، وكذبت تجارب الناس وقياسهم وتقديرهم ، وكادت الاحوال والامور أن تعود الى ما كانت عليه في الماضي السعيد ، وهبت على قلوب الناس نفحات القرن الاول ، وان حقيقة الاسلام في هذا العصر اذا ظهرت وتمثلت في جماعة ، تستطيع أن تذلل كل عقبة ، وتهزم كل قوة ، وتأتي بعجائب وآيات من الايمان والشجاعة والايثار ، يعجز الناس عن تعليلها كما عجزوا من قبل عن تعليل حوادث الفتح الاسلامي ، وأخبار القرن الاول .





ثورة في التفكير [1]

اننا ـ معشر المسلمين ـ في حاجة الى ثورة ، ثورة في التفكير .

منذ قرون طويلة بدأنا ننظــر الى أنفسنا كمجموعة بشرية موزعة في العالم،منتشرة في البلاد ، ذات قوميات مختلفة ، ولغات متنوعــة ، وثقافات محليــة ، محــاطة بظروف ، وأجواء خاصة ، « وامكانات » محدودة ، تجمع بين فروعها المختلفة ، وأسرها المتشتتة «وحدتان» اثنتان لا ثالثة لهما، « العقيدة » « والخضوع للغرب،والانحصار عليه في المعيشة والسياسة » .

ومنذ مــدة طويــلة بدأنا نزن أنفســنا ، وقيمتنا ، ومكانتنا في خارطة العالم بهذه الطاقات « والامكانات » ، وبما نملكه من الوسائل ، والمواد الخام ، وحواصل البلاد ومنتجاتها ، وعدد النفوس والقوة الحربية ، فنرى كفتنا

---

١ ـ مقال كتبه المؤلف افتتاحية لمجلة « المسلمون » الصادرة في جنيف .

راجحة في اقليم ، طائشة في آخر ، راجحة في حين ، طائشة في حين آخر ·

ومنذ مدة طويلة آمنا بسيادة الغرب وقيادته ، وأنه أمر مقرر وواقع ليس منه مفر ، وآمنا بأنه وضع لا يقبل التحول ولا التطور ، وتجدد المثل القديم ، وأصبح عقيدة شائعة : « اذا قيل لك أن التتر انهزموا فلا تصدق [1] » ·

وأصبحنا لا نفكر في معارضة الغرب، ومناقشة سيادته وجدارته للسيادة ، واذا فكرنا في ذلك ــ على حين غفلة من العلم ، والدراسة والكياسة ــ استعرضنا طاقاتنا ، ووسائلنا والقوة الحربية في بلادنا، وسهمنا من المخترعات الحربية ، والطاقات الذرية ، فاستولى علينا اليأس والتشاؤم ، وآمنا بأننا لم نخلق الا للخضوع والخنوع ، ولنعيش على هامش الحياة ، وعيالا على الغرب ، مرتبطين ومعقودي النواصي بأحد المعسكرين المتنافسين ·

هكذا يفكر العرب،وهكذا يفكر المسلمون في باكستان، وفي اندونيسيا وفي تركيا ·

وهكذا يفكر الناس في اليابان، وفي الصين، وفي الهند، وفي سيام ، وفي بورما ·

---

١ ــ كذلك الجملة المأثورة الشائعة في المجتمع الاسلامي في القرن السابع عند غزو التتار للعالم الاسلامي واخضاعه من أقصاه الى أقصاه ·

هذا هو التفكير « السليم » وهذا هو المنطق «السديد» ــ كما يسميه الناس ــ وهذا هو الاستنتاج العلمي المبني على الدراسة ، والايمان بقوة الاسباب ، وطبيعة الاشياء .

ولكن هناك جماعة لا تقبل هــذا التفكير ، ولا تؤمن بهــذا المنطق ، بل تثور على هذا المنهــج الفكري ثورة قوية عارمة ، ان لها منهجا ــ في العمل ــ مختصا بها ، والى هذا المنهج يرجع الفضل في أفضــل الثورات ، وأصلحها وأقواها في التاريخ ، وفي تغير الاوضاع في العالم تغــيرا مدهشا ، وفي سعادة البشرية بعد الشقاء الطويل، وصلاح المجتمع البشري بعد الفساد الشامل .

ولا أمل للامم الضعيفة الا في هذا المنهج ، ولا مستقبل للامم ــ التي تؤمن بالمبادىء ، وتحتضن الدعوات ــ الا في هذا المنهج .

ولنفهم هذا المنهج، وقوته، وفضله، ونتائجه الباهرة للعقول، نرجع قليلا الى الماضي ، ونستوحي « الصحف الصادقة » . يولد موسى في مصر في بيئة قاتمة خانقة ، قد انطبقت على بني اسرائيل كل الانطبــاق ، وسدت في وجوههم المنافذ والابواب ، حاضر شقي ، ومستقبل مظلم ، وقلة عدد ، وفقر وسائل ، وذلة نفوس ، عدو قاهر ، وسخرة ظالمة ،

لا قوة تدافع ولا دولة تحمي ، أمة مصيرها معلوم محتوم، قد خلقت للشقاء والفناء ٠

ويولد موسى ، وولادتــه وحياته كلها تحـد لفلسفة الاسباب ، ومنطق الاشياء ، أراد فرعون أن لا يولد فولد، وأراد أن لا يعيش فعاش ، يعيش في صنـدوق خشـبي مسدود ، وفي ماء النيل الفائض ، وينشأ في حضانة العدو ورعاية القاتل ، ويجد به الطلب القوي الساهر ، فيفلت وينجو ، ويأوي الى ظل شجرة كئيبا غريبا فيجد الضيافة الكريمة ، والزواج الحبيب ، ويرجع بأهله فيلفه الليل المظلم والطريق الموحش ، وتتمخض زوجه فيطلب لها نارا تصطلي بها ، فيجد نورا يسعد به بنـو اسرائيل ، ويهتدى به العالم ، يطلب النجدة والمدد لامرأة واحدة ، فيجد النجدة والمـدد للانسانية كلها ، ويُكرم بالنبـوة والرسالة ٠

ويدخل على فرعون في أبهتـه وسلطانه ، وفي مـلأه وأعوانه ، وهو المطلوب بالامس قد تحققت عليه الجناية، وتوجهت اليه الدعوى ، وفي لسانه حبسة ، وفي موقفه ضعف ، فيقهر فرعون وملأه بدعوته وايمانه ، وحجته وبيانه ، ويلجأ فرعون الى سحرة مصر ليقهر بفنهم معجزة موسى التي ظنهـا فنا وسحرا ، فـاذا بالسحرة خاضعون

خاشعون ، يقولون : « آمنا برب العالمين رب موسى وهارون » .

ويؤمر بالخروج ببني اسرائيل والاسراء في الليل من أرض الظلم الى أرض النجاة ، ويتبعه فرعون بجنوده ، ويصبح موسى والبحر أمامه والعدو من ورائه ، ويخوض البحر فينفلق ويكون كل فرق كالطود العظيم ، ويعبر موسى وقومه ، ويتبعهم فرعون بجنوده فيلتهمهم البحر الهائج .

وهكذا يهلك فرعون وقومه الاقوياء الاغنياء ، ويملك بنو اسرائيل الضعفاء الفقراء : « وأورثنا القوم الذين كانوا يستضعفون مشارق الارض ومغاربها التي باركنا فيها ، وتمت كلمة ربك الحسنى على بني اسرائيل بما صبروا ، ودمرنا ما كان يصنع فرعون وقومه وما كانوا يعرشون [1] » .

ما هي القوة التي قهر بها موسى أعظم قوة في عصره ومصره ، وما سر انتصار بني اسرائيل على أعدائهم ، وما سلاحهم الذي واجهوا به العدو القاهر الكاسر ، وأخضعوا به المحيط الخانق الثائر ؟ .

---

١ ـ الآية ١٣٧ من سورة الاعراف .

اقرأ قصة موسى ـ في القرآن ـ من جديد ، تر أن السلاح الذي واجه به موسى فرعون وقومه ، وانتصر به بنو اسرائيل وتبوأوا الامامة والزعامة في مصر وحولها ، هو « الايمان » « والطاعة » « والدعوة الى الله » ويتجلى هذا الايمان وهذه الطاعة والدعوة في ثنايا القصة ومطاويها ، وقد تجلى هذا الايمان النبوي في دعوة فرعون وقومه ، وبه تغلب موسى على حجاج فرعون ودهائه ، هو يريد أن يشغله عن موضوعه ويثير عليه الملأ وهو ثابت على دعوته ، ثابت في ايمانه لا يتزعزع ولا يتزلزل ، ولا يتحول ولا يتغير ، قال فرعون : « وما رب العالمين ؟ قال : رب السموات والارض وما بينهما ان كنتم موقنين • قال لمن حوله : ألا تستمعون ؟ قال : ربكم ورب آبائكم الاولين ، قال : ان رسولكم الذي أرسل اليكم لمجنون • قال : رب المشرق والمغرب وما بينهما ان كنتم تعقلون [1] » •

ويسأله فرعون عن الاجيال التي مضت ، وهو موضوع شائك وسؤال محرج ، ولكن موسى يتغلب على دقة الموقف بايمانه الراسخ وحكمته النبوية ، فيقول : « علمها عند ربي في كتاب لا يضل ربي ولا ينسى [2] » • ويفيض في

---

١ ـ الآيات ٢٣ ـ ٢٨ من سورة الشعراء •

٢ ـ الآية ٥٢ من سورة طه •

الحديث عن الاله الواحد ـ الذي يفر منه فرعون ـ فيقول : « الذي جعل لكم الارض مهدا ، وسلك لكم فيها سبلا ، وأنزل من السماء ماء فأخرجنا به أزواجا من نبات شتى (١) » .

ويتجلى هذا الايمان في أبرز مظاهره ، لما رأى موسى أمامه البحر المائج ، ومن ورائه العدو الهائج ، فلا متقدم ولا متأخر ، وهو وقومه بين طبقتي الرحى ، ويناديه بنو اسرائيل في جزع وفي فزع : « قال أصحاب موسى : انا لمدركون (٢) » ولكنه ثابت الجأش ، قوي الايمان ، يعرف أن الله ناصر عبده، ومنجز وعده، يقول في صراحة وثقة: « كلا ، ان معي ربي سيهدين (٣) » .

ويعيش بنو اسرائيل في مصر حياة ذل وشقاء ، وبؤس وفقر ، يعانون أفظع أنواع الظلم والاضطهاد ، وأقسى أساليب الحكم والاستبداد ، فيؤمرون بالانابة الى الله وتقوية الايمان وتحسين الصلة بالله ، ليستحقوا نصره ويوجد في أنفسهم صلاحية الوراثة والخلافة في الارض : « وأوحينا الى موسى وأخيه أن تبوّأا لقومكما بمصر

---

١ ـ الآية ٥٣ من سورة طه .
٢ ـ الآية ٦١ من سورة الشعراء .
٣ ـ الآية ٦٣ من سورة الشعراء .

بيوتا ، واجعلوا بيوتكم قبلة ، وأقيموا الصلاة وبشر المؤمنين (١) » ٠

ولا طاعة أعظم من طاعة موسى ، وانقياده واستسلامه للامر الالهي ، يؤمر بالتوجه الى أعظم ملوك عصره ــ وهو الثائر الموتور ، شديد البطش ، عظيم السلطان ــ فيقال: « اذهب الى فرعون انه طغى (٢) » ويتوجه الى بلاط جبار يدعي الربوبية ، فيدعوه الى الله الواحد القهار ، ويستمر في دعوته وجهاده ، وفي وعظه وارشاده ، حتى يفتح الله بينه وبين قومه بالحق وهو خير الفاتحين ٠

لقد كان الايمان والطاعة والدعوة الى الله القوة التي واجه بها موسى «مشكلات عصره» وقهر بها أعظم امبراطورية على وجه الارض ، أرقاها مدنية ، وأوسعها رقعة ، وأغناها أسبابا ، وأعظمها جبروتا ٠

لو كان موسى ــ كزعيم لبني اسرائيل ــ يفكر تفكير الزعماء السياسيين ، ويستعرض «الامكانيات» والوسائل التي يملكها قومه ، ويزن كل شيء في ميزان الواقع ، والحكمة العملية ، ولو نظر ــ وهو الذي نشأ في البلاط الملكي ــ الى العدد والعدة ، والعزة والمنعة ، والجنود

١ ــ الآية ٧٨ من سورة يونس ٠
٢ ــ الآية ١٧ من سورة النازعات ٠

والبنود ، والثروة والذخائر التي كان يملكها فرعون ، وقارن في ذلك بين قومه وقوم فرعون ، لما جاز له ــ في شريعة العقل ــ أن يواجه فرعون بما يسوءه ، ولتحتم عليه أن يقنع بحظه وحظ قومه، ويرضى بالوضع السائد، فلا ايمان ولا صلاح ، ولا عدل ولا أخلاق ، ولا تقوى ، ولا انسانية ·

ولكنه نبي يرشده الوحي ، ولكنه مؤمن بقـوة الله ويؤمن بنصر الله ، ولكنه داعية يفكر تفكير الدعاة ، وان هذا المنهج من التفكير والعمل هو الذي غير مجرى التاريخ، وأتى بالمعجزات ، وأدهش العقول ، وحير الالباب ·

ولو كان الرسول الاعظم محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم يفكر تفكير الزعماء ، ويستعرض الامكانيات والوسائل ، التي كانت تملكها قريش ، ولو أنه نظر الى الامبراطوريتين العظيمتين اللتين توزعتا العالم المتمدن المعمـور : الامبراطوريـة الروميـة ، والامبراطوريـة الفارسية ، وما تتمتعان به من حول وطول ، وقد عرف قوتهما وسعة مملكتهما ــ وهو الفقيه الواعي ــ لما جاز له ــ في شريعة العقل ــ أن يتوجه بدعوته الى الانسانية جميعـا ، ويكتب الى سيدَي العـالم المعـاصر ورئيسي الامبراطوريتين الغربية والشرقية، يدعوهما الى الاسلام، ولبقي الوضع الذي كان يسود من قرون ، فمتى تملك

هذه الحفنة البشرية التي آمنت به ، القوة التي تضارع قوة الامبراطوريتين بل تفوقها حتى تهزمها وتدحرها ؟ والى متى كان يجب عليه أن ينتظر ؟ وماذا كان مصير العالم ومصير الانسانية لو اتجه هذا الاتجاه وفكر هذا التفكير ؟

لقد شقيت الانسانية اذن شقاء طويلا ، وتأخر أو توقف طلوع الصبح الصادق ، ولكان للانسانية تاريخ غير هذا التاريخ .

ولكنه صلى الله عليه وسلم نبي يؤمر فيعمل ، ويتلقى التوجيه والارشاد من السماء فينفذ ، ولكنه مؤمن يؤمن بقوة الله ويؤمن بنصره ، ويؤمن بأن الضعيف مع نصره قوي ، والقوي يخذل لانه ضعيف، ويؤمن بقول الله تعالى: « ان ينصركم الله فلا غالب لكم ، وان يخذلكم فمن ذا الذي ينصركم من بعده ، وعلى الله فليتوكل المؤمنون (١) » ويؤمن بقوله : « كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة باذن الله ، والله مع الصابرين (٢) » ويؤمن بأن الله قد تكفل بنصر من ينصر دينه ، وينهض لاعلاء كلمته ، فقال : « يا أيها الذين آمنوا ان تنصروا الله ينصركم ويثبت

---

١ ـ الآية ١٦٠ من سورة آل عمران .
٢ ـ الآية ١٤٩ من سورة البقرة .

أقدامكم (١) » وقال : « ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين : انهم لهم المنصورون ، وان جندنا لهم الغالبون (٢) » • ويؤمن بأن الله قد وعد بالانتصار والغلبة ، والعلو والسيادة ، لعباده الذين قد تحققت فيهم صفة الايمان ، وتجلت فيهم حقيقته ، فقال : « ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الاعلون ان كنتم مؤمنين (٣) » ولم يعد بشيء من ذلك ـ من النصر والفتح ، والظفر والغلبة ، والعلو والسيادة ـ على الاهواء والنزعات ، والطموح والكبرياء وحب المجد ـ الفردي أو القومي ـ وشرف الدماء والانساب والبلاد ، والعصبيات والقوميات ، فلم يتقدم بشيء من ذلك الى العالم ولم يطلب به النصر ؛ مع أنه صلى الله عليه وسلم من أشرف الامم ، وأفضل البيوتات ، وأقدس البلاد ، انما تقدم بدعوة دينية ، ومنهج خاص للحياة لا غنى للامم وطوائف البشر عنه على اختلاف أوطانها وألوانها ولغاتها ، فخضعت له هذه الامم وهذه الطوائف من البشر ولم تعقها عن ذلك عصبية أو قومية ، لانه لم يكن من دعاة عصبية أو جاهلية وانما كان دين عام للانسانية ، وداعي عقيدة ومبدأ ومنهج

---

١ ـ الآية ٧ من سورة محمد •

٢ ـ الآية ١٧٣ من سورة الصف •

٣ ـ الآية ١٣٩ من سورة آل عمران •

فاضل للحياة ، و نصره الله على قلة وضعف وفقر ، و نصر كل من قام بهذه الدعوة الدينية و بهذا المنهج الخاص للحياة ، و تكفل بنصرهم الى آخر الدهر ، فقال : « أولئك حزب الله ، ألا ان حزب الله هم المفلحون [1] » .

انني لست ممن يدعو الى رفض الاسباب والتوكل السلبي ، ولست ممن يعيش في عالم الخيال والاحلام ، ولست ممن ينكر الحاجة الى الاستعداد ، وممن لم يقرأ قوله تعالى : « وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة [2] » وقد لمت العالم الاسلامي ومن تزعمه من الشعوب والدول لوما شديدا في كتابي « ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين » على التقصير في الاستعداد الحربي والصناعي ، والتخلف عن أوربا في ذلك ، واعتبرت ذلك سببا من أسباب شقاء الانسانية واتجاه العالم من الرشاد الى الضلال، ومن البناء والازدهار الى الهدم والدمار .

ولكني أعارض هذا التفكير الذي تسلط على عقلية العالم الاسلامي في العهد الاخير ، وهو النظر الى الامم الاسلامية ـ في مختلف أنحاء العالم ـ ككتل بشرية شأنها شأن القطعان البشرية الاخرى التي لا رسالة لها في العالم ، ولا دعوة لها للامم ، توزن في ميزان الامكانيات والوسائل والاستعداد المادي ، وتقوم بما تملكه ، من ثروة وذخائر ، والتناسي أو الاعراض عن قوتها الكبرى « الايمان ، والطاعة ، والدعوة الى الله » .

---

١ ـ الآية ٢٢ من سورة المجادلة .

٢ ـ الآية ٦٠ من سورة الانفال .

انا يا قوم فقراء ضعفاء متخلفون في العلم والصناعة ، وفي الاقتصاد والسياسة ، المسافة بيننا وبين الامم الاوربية مسافة قرون وعهود ، فليكن ذلك موضع اهتمام الزعماء والقادة ، ولينل ذلك كل عناية ورعاية ٠

ولكننا في وقت واحد القوة الكبرى في العالم ، فعندنا دين هو حاجة البشرية كلها ، وعندنا دعوة تنقذ العالم من نهايته الاليمة التي تنتظره وتدنو اليه ، وعندنا الايمان الذي يخلق الامانة والشعور بالمسئولية في النفوس ويخلق الدوافع القوية الى عمل الخير وخدمة الانسانية ، وقد حرمتها الامم الزعيمة للعالم بعد ما ملكت كل الاسباب والوسائل لعمل الخير ، وخدمة الانسانية ، فأصبحت هذه الوسائل ضائعة بل متجهة الى القضاء على المدنية والانسانية ، وحاجة أوربا في اقتباس هذا الايمان منا أشد وأعظم من حاجتنا الى الاقتباس من صنائعها وعلومها ، لان هذا الايمان هو الاساس ، وهو الموجه وهو الضابط ؟ وعندنا شريعة تحل جميع المشكلات والازمات التي يواجهها المجتمع البشري في القرن العشرين ، وعندنا ــ أولا وآخراً ــ نبي أرسل رحمة للعالمين « يهدي به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ويخرجهم من الظلمات الى النور ويهديهم إلى صراط مستقيم »[1] ٠

ألا فلنتجه بهذه الدعوة الى أوربا الحائرة التائهة باخلاص ونزاهة ، وتوجع وشفقة ، وبقوة وثقة وايمان ، ولننظر الى أنفسنا كدعاة ومنقذين ، مبشرين ومنذرين ، ونستخدم هذه القوة الجبارة في تغيير مصيرنا ومصير العالم، ولنحتل بفضلها مكانة الزعامة والقيادة في ركب الانسانية ومصاف الامم ، بعدما عشنا زمنا طويلا في مؤخر الركب

---

١ ــ الآية ١٦ من سورة المائدة ٠

وفي صف التلاميذ والحاشية ، ولنتجه بهذه الدعوة المقدسة المنصورة التي اما تقبل فترفع وتؤمَّن ، واما ترفض فتهلك وتقهر ، بهذه الدعوة التي أوجب الله على نفسه نصرها ونصر رجالها ٠

ولنتجه بهذه الدعوة الى مجالات مهجورة ، وكنوز مطمورة في آسيا وفي افريقية ، الى الشعوب التي ملكت الوسائل والعلم والصناعة ، والبلاد الواسعة ، والعقول الخصبة ، والسواعد القوية ، وجهلت الدين والغايات الصالحة ، والمبادىء الفاضلة ، وهي مستعدة لقبول هذه الدعوة ، واذا قبلت هذه الدعوة وفقهتها وأخلصت لها تغير مجرى التاريخ من جديد ، كما تغير في العهد الاول باسلام الفرس والترك والديلم ، وفي العهد الاوسط باسلام التتار والمغول ٠

الا اننا في حاجة الى ثورة ، الى ثورة في التفكير والمنهج ٠

• • •

بين الجباية والهداية [1]

الدول والحكومات قسمان : دولة شعارها الجبـــاية ، ودولة شعارها الهداية ، وكل لها طـــابع خاص ونفسية خاصة ، ورجـــال ممتازون ، ولكل نتائج متميزة .

فميزان الاشياء ومناط الاحـــكام في دولة الجباية هو تضخـــم الميزانية وكثرة الدخل والايراد ، ورفاهية رجال الحكومة واحتفـــال الحضارة وزهو المدنية ، وان كان ذلك بامتصاص دماء الفقراء ، وشقاء الفلاحين والعملة ، والضرائب المجحفة والمكوس المرهقة ، فلا يعني هذا الضرب من الحكومة الا بما يزيد في مواردها وماليتها ، وبما يهيىء لها أسباب الفخار والزينة والابهة ، بما يهيء للامراء والوزراء ، وأبنائهم وأبناء أبنائهم ، والمتصلين بهم ورجال الحكومة وأسرهم وخدمهم أسباب الترف والتنعم والبذخ ، وبما يبنون به قصورا فاخرة ، ويشترون به أملاكا واسعة ، في داخل البلاد وخارجها .

تغفل هذه الحكومة تربية الجمهور الدينية والخلقية ، وتعطل الحسبة والرقابة على الاخلاق والنزعات ، وتتغـــافل عن كل ما ليس

---

١ ــ أصل هذا المقال رسالة شخصية وجهت الى ملك من ملوك العرب ، ثم طبعت كرسالة عامة موجهة الى جميع المسلمين ، وقادة الرأي والفكر في العالم الاسلامي .

بسبيلها ، وما لا يجر عليها فائدة مالية أو قوة سياسية ، وقد تبيح منكرا أو محرما اذا كانت تجني منه نفعا ، وتحرم مباحا اذا كانت تخاف منه خطرا سياسيا أو خسارة مالية ، ولا يزال الجشع والنهامة للمال تدفعها وتزين لها خطتها ، حتى تفرض ضرائب على العبادات ، وعلى الموت والحياة، وهكذا تتحول منحكومة ساهرة على مصالح الجمهور وراحتهم ومن مربية وحارسة للامة ، الى شركة تجارية كبيرة لا يهمها الا جمع الاموال وزيادة الارباح ٠

أما الدولة التي شعارها الهداية ، فمهمتها الدعوة الى الله والامر بالمعروف والنهي عن المنكر ، ومعيارها تحسن أخلاق الجمهور ، وسمو روحهم وتحليهم بالفضائل واقبالهم على الآخرة ، وزهدهم في الدنيا والقناعة في المعيشة ، واجتنابهم المحرمات والمعاصي ، وتنافسهم في الخيرات ، ولو كان ذلك على حساب ميزانيتها وخسارة ماليتها ، فتنصب الوعاظ ، وترسل الدعاة ، وتشجع الحسبة ، وتمنع الخمور ، وتنكر على الفجور ، وتحرم الملاهي والمعازف ، وتطارد المستهترين والخلعاء ، وتمنع كل ما يفسد على الناس عقيدتهم وأخلاقهم ، ويفسد الحياة المنزلية ، وتغص في حكمها المساجد ، وتقفر الحانات ، ويزدهر الدين والتقوى ، وتضمحل المعاصي والجنايات ، ويقوم أهل الدين والصلاح وينشطون ويتحمسون ، ويتوارى الفجار والملحدون وينكمشون٠ ويكون ما وصفه الله تعالى : « الذين ان مكناهم في الارض : أقاموا الصلاة ، وآتوا الزكاة ، وأمروا بالمعروف ، ونهوا عن المنكر ، ولله عاقبة الامور [1] » ٠

يمتاز جهاز حكومة الهداية بأسره عن جهاز حكومة الجباية بأسره ، يمتاز عنه في النزعات والروح ، والسيرة والمعاملة والسلوك ،

---

١ ــ الآية ٤١ من سورة الحج ٠

فنرى في الاول التطوع والاحتساب ، وروح الخدمة والايثار ، والامانة والتضحية والوفاء ، بينما نرى في رجال حكومة الجباية معاكسة القانون ورجاله والاجتهاد في معاجزته والتفلت منه ، والكبر والتجبر ، والاثرة والخيانة ، والنفاق والزور ، وفشو الرشوة الى حد يدعو الانسان بين الركن والمقام أن لا يبتلى منهم ، فلا ينال الانسان حقه من العدل والراحة ، ولا يتمتع بحقوقه المدنية الا اذا رضخ من ماله لهذا وقدم طعمة لذاك • ويستفحل الامر ويجل الخطب ، حتى لا يرى أحد في هذه الحكومة أنه خادم أمة وأمين حكومة ، لا يعد نفسه الا جابيا ــ ولكن لنفسه وعياله ــ قد منحته الحكومة فرصة جمع الاموال ، فلا يريد أن تفلته هذه الفرصة ويتخلف عن قافلة الجباة الشخصيين ، وقد اشتد بها الجد ، وجد بها السير •

لقد سبق في التاريخ أمثلة لكل من حكومات الجباية والهداية • أما حكومات الجباية فلا تحتاج الى تمثيل ولا الى شرح وبيان ، فانها هي السائدة الفاشية في الماضي والحاضر ، وفي الشرق والغرب ، وقد جربها الانسان وعرفها في كل عصر ، أما حكومات الهداية فهي نادرة جدا ، فلنضرب لها مثلا :

بعث محمد صلى الله عليه وسلم فدعا الناس الى الاسلام فالتف حوله : « فتية آمنوا بربهم وزدناهم هدى • وربطنا على قلوبهم اذ قاموا فقالوا ربنا رب السموات والارض لن ندعو من دونه الها لقد قلنا اذاً شططا . هؤلاء قومنا اتخذوا من دونه آلهة ، لولا يأتون عليهم بسلطان بيّن • فمن أظلم

ممن افترى على الله كذبا (1) » • وكان هؤلاء الفتيان هدف كل قسوة وظلم ، واضطهاد وبلاء وعذاب ، وقد قيل لهم من قبل : « أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون • ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين(2) » فصمدوا لكل ما وقع لهم وثبتوا كالجبال ، وقالوا : « هذا ما وعدنا الله ورسوله وصدق الله ورسوله (3) » • حتى أذن الله في الهجرة ، ولم تزل الدعوة تشق طريقها وتؤتي أكلها حتى قضى الله أن يحكم رجالها في الارض ، ويقيموا القسط ، ويخرجوا الناس من الظلمات الى النور ، ومن عبادة العباد الى عبادة الله وحده ، ومن ضيق الدنيا الى سعتها ، فقد عرف أنهم اذا تولوا وسادوا « أقاموا الصلاة ، وآتوا الزكاة ، وأمروا بالمعروف ، ونهوا عن المنكر » •

وهكذا جاءت الدعوة بالحكومة كما تأتي الامطار بالخصب والزرع ، وكما تأتي الاشجار بالفاكهة والثمر ، فلم تكن هذه الحكومة الا ثمرة من ثمرات هذه الدعوة الاسلامية • ولم تكن هذه العزة والقوة الا نتيجة ذلك العذاب الذي تحملوه من قريش وغيرهم ، وذلك الهوان

---

1 ــ الآية ١٤ من سورة الكهف •

2 ــ الآية ٣ من سورة العنكبوت •

3 ــ الآية ٢٢ من سورة الاحزاب •

الذي لقوه في مكة وغيرها ٠

جاءت الحكومة بما يتبعها من عزة وشوكة ، ورجال وأموال ، وكنوز وخزائن ، وجبـاية وخراج ، ورفاهة ونعيم ، وكان المجال واسعا جدا لجمع الاموال وحـكم الرجال ، ورفاهية الحـال اذا اختـاروا طريق الملـوك والسـلاطين في فـرض الضرائب الكثيرة ، والاتـاوات المتنوعة والمكوس الجائرة ٠

التفت القوم فاذا دولتهم الوليدة على مفترق الطرق ـ طريق الجباية وطريق الهداية ـ هنالك سمعوا هاتفا يقول : ويحكم ان محمـدا صلى الله عليه وسلـم لم يبعث جابيا وانما بعث هاديا وأنتم خلفاؤه » فلـم يترددوا في ايثار جانب الهداية على جانب الجباية ، واتخاذ الدعوة والهداية شعارا ومبدأ لحكومتهم فكان ذلك ٠

لقد علموا أنهم لو آثـروا جانب الجباية وأطلقـوا أيديهم في أموال الناس ، واسترسلوا الى النعيم ، ورتعوا في اللذات ، لم يحل بينهم وبين ذلك أحد ، ولم يقف في سبيلهم واقف ٠ ولكنهم علموا أنهم لو فعلوا ذلك فقد غشّوا اخوانهم الذين سبقوهم بالايمان ، وقضوا نحبهم بدون أن يأكلوا ثمار غرسهم ، لقد خانوا أولئك الذين لم يعرفوا الا الجهاد والتعب والجوع والسغب ، ولقد

وصلوا الى الحكومة على جسر من متاعبهم وايثارهم ٠ أفيجوز لهم أن يستغلوها لمصلحتهم وشهواتهم ، وآبنائهم ، ويتمرغوا في النعيم ، ويسرفوا في الاكل والشرب ؟ لقد ظلموا اذن عثمان بن مظعون ، وحمزة بن عبد المطلب ، ومصعب بن عمير ، وأنس بن النضر ، وسعد بن معاذ ، وكثيرا من رفقتهم الذين لم يروا شيئا من الفتوح والغنائم ، ولم يشبعوا أياما متوالية ، وقف القوم ولم يطب لهم الاكل والشرب ، وأرادوا آن يلحقوا باخوانهم ولم يأخذوا من الدنيا الا البلاغ ٠

تأسست دولة الاسلام وفتحت فارس وبلاد الروم ، والشام ونقلت الى عاصمة الاسلام ـ المدينة المنورة ـ كنوز كسرى وقيصر ، وانصبت عليها خيرات المملكتين العظيمتين ، وانهال على رجالها من أموال هاتين الدولتين وطُرَفها وزخارفها ، ما لم يدر قط بخلدهم ، وقد انقضى على اسلامهم ربع قرن وهم في شدة وجهد من العيش ، وفي جشوبة المطعم وخشونة الملبس ، لا يجدون من الطعام الا ما يقيم صلبهم ، ولا من اللباس الا ما يقيهم من البرد والحر ، فاذا بهم اليوم يتحكمون في أموال الاباطرة والاكاسرة ، فاذا أراد الواحد منهم أن يلبس تاج كسرى وينام على بساط قيصر لفعل ، لقد كانت ـ والله ـ هذه محنة عظيمة ، تزول فيها الجبال الراسيات ، وتطير لها

القلوب من جوانحها ، وتعمش لها العيون ، ولكنهم سرعان ما فطنوا أنهم ما وقفوا بين الفقر والغنى فحسب، بل أنهم خيروا بين أن يتنازلوا عن دعوتهم وامامتهم ومبادئهم ، وينفضوا منها يدهم فلا يطمعوا فيها أبدا ، وبين أن يحافظوا على روح هذه الدعوة النبوية وعلى سيرة رجالها اللائقة بخلفاء الانبياء والمرسلين ، وحملة الدعوة المؤمنين المخلصين ٠

كان لهم أن يؤسسوا ملكا عربيا عظيما على أنقاض الدولة الرومية والفارسية ، وينعموا كما نعم ملوكها وأمراؤها من قبل ،فقد ورثوا امبراطوريتين : الفارسية والرومية ، وجمعوا بين موارد دولتين ٠ فاذا كان كسرى يترفه بموارد فارس فقط، واذا كان هرقل يبذخ بموارد الروم فقط ، فهذا عمر بن الخطاب يمكنه أن يترفه بموارد الامبراطوريتين ويبذخ بذخا لم يبذخه أحدهما ٠

كان له ولاصحابه كل ذلك بكل سهولة ، ولكنهم سمعوا القرآن يقول : « تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علوا في الارض ولا فسادا والعاقبة للمتقين[1] » ٠

وكأنهم يسمعون نبيهم صلى الله عليه وسلم يقول قبل وفاته :

---

١ ــ الآية ٨٣ من سورة القصص ٠

« فوالله لا الفقر أخشى عليكم ، ولكن أخشى أن تبسط عليكم الدنيا ، كما بسطت على من كان قبلكم ، فتنافسوها كما تنافسوها ، وتهلككم كما أهلكتهم [1] » .

فهتفوا عن آخرهم قائلين :

اللهم لا عيش الا عيش الآخرة . فاغفر للانصار والمهاجرة ، وهكذا حافظوا على روح الدعوة الاسلامية وسيرة الانبياء والمرسلين ، وعاشوا في الحكومة كرجال الدعوة ، وفي الدنيا كرجال الآخرة ، وملكوا أنفسهم في هذا التيار الجارف ، الذي سال قبلهم بالمدنيات والحكومات ، والشعوب والامم ، وسال بالمبادىء والاخلاق ، والعلوم والحكم .

ما زال الناس يعدون اقتحام المسلمين دجلة بخيلهم وجندهم تحت قيادة سعد بن أبي وقاص ووصولهم الى الشط الثاني من غير أن يصابوا في نفس أو مال أو متاع حادثا غريبا من أغرب ما وقع في التاريخ ، ان الحادث لغريب ، ولكن أشد منه غرابة وأدعى للعجب أن المسلمين في عهد الخلافة الراشدة وعصر الفتوح الاسلامية الاولى خاضوا بحر مدنية الروم وفارس وهو مائج هائج ، وعبروه ولم يفقدوا شيئا من أخلاقهم ومبادئهم وعاداتهم ، ووصلوا

---

١ ــ رواه البخاري ومسلم .

الى الشط الثاني ، ولم تبــل ثيابهم ، ولم يزل الخلفاء الراشدون وأمراء الدولــة الاسلامية من أصحاب النبي صلى الله عليــه وســلم محتفظــين بروحهم ، ونفسيتهــم وزهدهم وبساطتهم ، في المعيشة وتخشنهم في أوج الفتوح الاسلامية ·

حكى الطبري دخول الهرمزان المدينــة ، ومواجهته لعمر رضي الله عنه قال : هيأوا الهرمزان في هيئتــه ، فألبسوه كسوته من الديباج الذي فيه الذهب ، ووضعوا على رأسه تاجا يدعى الآذيــن مكللا بالياقوت ، وعليــه حليته كيما يراه عمر والمسلمون في هيئته ، ثم خرجوا به على الناس يريدون عمر في منزله ، فلم يجدوه فسألوا عنــه ، فقيل : جلس في المسجــد لوفــد قدموا عليــه من الكوفة ، وانطلقوا يطلبونه في المسجد فلم يروه ، فلما انصرفوا مروا بغلمان من أهل المدينة يلعبون ، فقالوا لهم : ما تلددكم تريدون أمير المؤمنين؟ فانه نائم في ميمنة المسجد متوسدا برنسه ، وكان عمر قد جلس لوفد أهل الكوفة في برنس ، فلما فرغ من كلامهم وارتفعوا عنه وأخلوه نزع برنسه ثم توسد فنــام · فانطلقوا ومعهم النظارة حتى اذا رأوه جلسوا دونه ، وليس في المسجد نائم ولا يقظان غيره ، والدرة في يــده معلقــة ، فقــال الهرمزان : أين عمر ؟ فقالوا : هُوَ ذا ، وجعل الوفــد

يشيرون الى الناس أن أسكتوا عنه ، وأصغى الهرمزان الى الوفد ، فقال : أين حرسه وحجابه عنه ؟ قالوا : ليس له حارس ولا حاجب ولا كاتب ولا ديوان ! قال : فينبغي له أن يكون نبيا . فقالوا : بل يعمل عمل الانبياء ، وكثر الناس فاستيقظ عمر بالجلبة ، فاستوى جالسا ثم نظر الى الهرمزان فقال : « الهرمزان » ؟ قالوا : نعم ! فتأمله وتأمل ما عليه وقال أعوذ بالله من النار وأستعين الله ، وقال : الحمد لله الذي أذل هذا وأشياعه ، يا معشر المسلمين تمسكوا بهذا الدين واهتدوا بهدي نبيكم ولا تبطرنكم الدنيا فانها غرارة ، فقال الوفد : هذا ملك الاهواز ، فكلمه . فقال : لا ، حتى لا يبقى عليه من حليته شيء ، فرمي عنه بكل شيء عليه الا شيئا ليستره ، وألبسوه ثوبا صفيقا فكلمه (١) .

ويصف ضرار بن ضمرة علي بن أبي طالب في خلافته بعد وفاة علي لمعاوية ، ويقول: «انه ليستوحش من الدنيا وزهرتها ويستأنس بالليل وظلمته ، كان ـ والله ـ غزير الدمعة ، طويل الفكرة ، يقلب كفه ويخاطب نفسه ، يعجبه من اللباس ما خشن ، ومن الطعام ما جَشُب (٢) ، كان والله كأحدنا يجيبنا اذا سألناه ، ويبتدئنا اذا أتيناه ،

---

١ ـ تاريخ الطبري (ج ٤ ص ٣٧) .
٢ ـ ما جشب : ما غلظ وخشن .

ويأتينا اذا دعوناه ، يعظم أهل الدين ، ويحب المساكين ، لا يطمع القوي في باطله ولا ييأس الضعيف من عدله ، وأشهد بالله لقد رأيته في بعض مواقفه ، وقد أرخى الليل سجوفه وغارت نجومه ، وقد مثل في محرابه ، قابضا على لحيته ، يتململ تململ السليم ، ويبكي بكاء الحزين ، وكأني أسمعه وهو يقول : « يا دنيا أبي تعرضت ، أم لي تشوفت ؟ هيهات هيهات !! غرّي غيري ، قد بتتُّك ثلاثا لا رجعة لي فيك . فعمرك قصير ، وعيشك حقير وخطرك كبير . آه ! من قلة الزاد وبعد السفر ووحشة الطريق (١) » .

كان شعار الدولة الاسلامية الاولى الهداية والدعوة الى الله وخدمة الناس ، فكانت الدولة تخسر أموالا عظيمة في سبيل الاخلاق والدين ، وكانت اذا خيرت بين أرواح الرجال ومبالغ من المال اختارت الارواح وخسرت الارباح ، وتطيب بذلك نفسا وتقر به عينا ، واذا كان عكس ذلك فكسبت الاموال وخسرت الرجال ، حزنت لذلك وحزن المسلمون كحزنهم على ملك زائل وسلطان راحل ، وقد فضل الخلفاء الراشدون وخامسهم عمر بن عبد العزيز رحمه الله ان يدخل المجوس والنصارى في الاسلام ويعفوا

١ ــ صفة الصفوة لابن الجوزي ج ١ .

من الجزية ، فيخسر بيت مال المسلمين مقدارا عظيما من المال ، ويكسب الدين الاسلامي والامة الاسلامية رجالا يتخلصون من النـار ، واذا كسب وربح بيت المـال على حساب الاسلام حزنوا حزنا شديدا ·

حدّث الطبري عن زياد بن الزبيدي ، قال : « جمعنا في مصر ما في أيدينـا من السبايا واجتمعت النصارى ، فجعلنا نأتي بالرجل ممن في أيدينا ثم نخيره بين الاسلام وبين النصرانية ، فاذا اختار الاسلام كبرنا تكبيرة هي أشد من تكبيرنا حين نفتح القرية، قال : ثم نحوزه الينا· واذا اختار النصرانية نخرت النصارى ثم حازوه اليهم ووضعنا عليه الجزية وجزعنا من ذلك جزعا شديدا ، حتى كأنه رجل خرج منا اليهم [1] » ·

وهكذا انتشر الاسلام ، وانتشرت الاخلاق الفاضلة في عقود من السـنين من أقصى الشرق الى أقصى الغـرب ، وتغلغلت الدعوة الاسلامية في أحشاء المجتمع البشري · لم يتمتع العالم الاسلامي بخلافة عمر بن عبد العزيز الا سنتين وبضعة شهور،ولكنه بحرصه على الدعوة ومحافظته على شعار الهداية ، وسيرة خلفاء الانبياء عليهم السلام تمكن من التأثير في القلوب والعقول ، وقلب تيار المدنية ،

---

١ ـ تاريخ الطبري (ج ٤ ص ٢٣٧) ·

واظهار الدين واخمـــاد الكفر والفسق ، والقضاء على رسوم الجاهلية ، ما لم تتمكن منه دول اسلامية طويلة الاعمار لتراوحها بين الهدايـــة والجبـــاية ، وتفضيلها الجباية في أكثر الاحيان على الهداية •

وكانت المدن الاسلامية الكبرى وعواصم الاسلام مركز دعوة وهداية بحيث اذا دخلها الانسان عرف أنه يمشي في مركز الاسلام ويتنفس في جوه ، فيرى الحدود قائمـــة وأحكام الشرع نافذة ، ولا يجد أحدا يتهاون في أمر من أمور الدين ، ويستخف به أو يجاهر باثم ومعصية ولا يرى بدعة ولا فجورا ، ولا دعارة ولا خدعة ، ولا يسمع برشوة ولا خيانة ولا ما ينـــافي روح الاســـلام ، ويسمع الدعوة الى الله والى الدار الآخرة والى الفضيلة والتقوى واتباع الكتاب والسنة ، والاجتناب من الشرك والبدعة، والتمسك بفضائل الدين في كل مكان،ويرى العمل بذلك في الطرقات والمجامع ، وبيوت الناس ودواوين الحكومة ، فيتشبع بروح الدين ويتضلع ايمانا وحماسة ، وفقها في الدين ومعرفة بأحكامه وشرائعه وحبا لاهله ، فلا يخرج الا وقد استفاد الايمان والعلم والتصلب في الدين والثقة برجاله وممثليه •

واذا دخلها أجنبي أو حديث عهـــد بالاسلام ، عرف مزايا الحياة الاسلامية وفضـــل حكومة الاسلام ، وآثـــر

الاقامة فيها ، وكره أن يفارقها ، ويعـود الى دار الكفر كما يكره أن يقذف في النار .

أما الحَرَمانِ فقد كانا في حكومة الاسلام ـ المؤسسة على مبدأ الهداية ـ مدرسة الدين ومهد الحضارة الاسلامية، تتمثل فيهما الحياة الاسلامية بكمالها وجمالها، ويأتي اليهما المسلمون من كل ناحية من نواحي العالم الاسلامي ، ومن كل فج عميق ، فيشهدون منافع لهم ويتفقهون في الدين ، وينذرون قومهم اذا رجعوا اليهم ، ويحتجون في بلادهم بما رأوه في الحرمين، فيكون ذلك حجة لمحافظة الحجاز على الديـن والسنـة وحرص حكومتها على تمثيـل الحيـاة الاسلامية في مركز الاسلام ومنبعه .

ثم أتى على المسلمين حين من الدهر نسوا أن الحكومة في الاسلام لم تكن الا جائزة الدعوة والجهاد في سبيلها ، ولولا رسالة محمد صلى الله عليه وسلم ودعوته الى الله ، وما لقي في مكة والطائف من قريش والقبائل ، ولولا الهجرة والاختفاء في غار ثور ، والرباعية المكسورة يوم أحد ، ولولا ما صنع بحمزة يومئذ ولولا قتلى بئر معونة ومصلوب الانصار(١) ، لما دانت الدنيا للعرب ، ولا كانت

---

١ ـ هو خبيب بن عدي بن مالك الذي قتله بنو الحارث بن عامر ، وبضعوا لحمه ، وحملوه على جذعة ، وهو القائل :

ولست أبالي حين أقتل مسلما   على أي جنب كان في الله مصرعي

دمشق ولا بغداد ، ولا كان لبني مروان أن يجبوا خراج الروم وفارس ، ولا كان للرشيد أن يقول لسحابة مرت به : « أمطري حيث شئت فسيأتيني خراجك » .

أسس ملوك المسلمين بعد الخلافة الراشدة دولهم على مبدأ الجباية السياسية ، وأهملوا الدعوة الى الله والى دار السلام ، وعطلوا الحدود وأبطلوا الحسبة ، والامر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، وأضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات ، ولم تعد مراكز الاسلام مدرسة الدين ومرآة لمدنيته واجتماعه ؛ بل أصبحت تغرس الشك والنفاق في قلوب الوافدين وتزعزع عقيدتهم وثقتهم بالدين وأهله ، وأصبح القاصدون من مختلف أنحاء العالم الاسلامي يكتسبون منها استخفافا بشعائر الاسلام ، ورقة في الدين ، ووهنا في العمل ، وسوء ظن بممثلي الاسلام ، ورجعوا يحتجون بالاوضاع الفاسدة في مراكز الاسلام ، وبالفوضى الدينية ، فكانت داهية عظيمة على رجال الاصلاح والدعوة في الاقطار الاسلامية ، وفتنة كبيرة .

ليس العالم الاسلامي اليوم بأشد افتقارا الى شيء ، منه الى حكومة تمثله تمثيلا صحيحا ، وتقوم على أساس الدعوة والهداية ، والنصيحة والخدمة ، فان الاسلام لا يؤثر في عقول الناس ، ولا يشفي المتفحصين حتى تكون له رقعة في الارض ، تتمثل فيها حياته وتتجلى فيها مدنيته واجتماعه ، وتظهر فيها نتائج دعوته وتعاليمه ، فاذا كان ذلك ولو في

رقعة صغيرة كان على الاسلام اقبال عظيم لم يعهد من قرون •

وليس العالم الانساني بأقل افتقارا من العالم الاسلامي لمثل هذه الحكومة التي شعارها الهداية والاصلاح ، لا الجباية والكفـاح ، فان الانسانية العليلة جريحة لا يسعفها اليوم الا قيام هذه الحكومات التي تؤسس على أساس الفضيلة والدين ، واحترام الانسانية ، وايثار الارواح على الارباح ، والاخلاق على الاعلاق ، وكسب الرجال على كسب الاموال ، فاذا تأسست هذه الحكومة ـ مهما كانت صغيرة ومهما كانت مواردها ضيعفة ـ كان ذلك حادثا غريبا يستحق كل تنويه واشادة، وقام كبار السياسيين وأصحاب اليراع ، وقادة الفكر يشيرون اليها بالبنان ويضربون بها الامثال ، ويؤلفون عنها مؤلفات ، وأصبح الناس يأوون اليها كما يأوي الغرقى الى جزيرة في البحر ، لينعموا في ظل حكومتها ، وينفضوا عنهم غبار الظلم والفتن ، ويتنفسوا من متاعب المدنية المعقدة المزورة ، والحكومات الجابية الجائرة ، ولكانت هذه الحكومة غرة في جبين الدهر ، وشامة بين الحكومات والدول •

ان الانسانية قد جربت حكومات الجباية على اختلاف أنواعها وأسمائها ـ من شخصية وديمقراطية، ورأسمالية واشتراكية وشيوعية ـ فوجدتها بنات علات ، لا تختلف في أصلها ومبدئها ، وروحها ونزعتها ، وقلبتها على كل جانب فلم تر منها الا شرا ومرا ، ولم تر اختلاف الاسماء يغني عن شيء ، واذا تأسست جديدة باسم جديد ، نادى لسان الحقيقة في لفظ أبي العلاء المعري :

ألا انما الايام أبنــاء واحد وهذي الليالي كلها أخوات
فلا تطلبن من عند يوم وليلة خلاف الذي مرت به السنوات

واذا ضمت الى هذه الحكومات المعدودة بالمئات حكومة جديدة لا تختلف عن اخواتها الا أنها يرأسها مسلم أو يديرها عدد من المسلمين ، لم تكن بدعا ولم تكن شيئا طريفا ينوه به أو يشار اليه بالبنان ، أو تعقد به الآمال ، فان هنالك حكومات تفوق هذه الحكومة عشرات من المرات في طول مساحتها وضخامة ميزانيتها، وكثرة انتاجها واصدارها، وفي جيشها وأساطيلها وبوارجها الحربية وعدد الطائرات، وكثرة المصانع ورقي الصناعة والتجارة ، واحتفال المدنية والحضارة ، وحسن الادارة وانتشار العلم في طبقات الشعب وقلة الامية ، الى غير ذلك مما تمتاز به الحكومات الاوربية .

ان قيام دولة للمسلمين في بقعة من بقاع الارض فرصة سعيدة نادرة لا تسنح في كل حين ، ومثل هذه الفرص ـ كما يعرف المطلع على السنن الالهية وعلى تاريخ الاديان والدعوات الاصلاحية ـ قد تسنح بعد قرون ، وتكون من فلتات الدهر ، وفي قصرها كوميض البرق في ليلة مظلمة ، وتكون امتحانا عظيما لرجالها ، كيف يستخدمون هذه الفرصة لدعوتهم ومبادئهم الدينية على حساب مصالحهم الذاتية ، وراحتهم ولذائذهم ، فاذا انتهزوا هذه الفرصة وعرفوا قيمة الوقت ، وأحسنوا تمثيل هذه العقيدة والدين الذي ينتسبون اليه وحسن ظن الناس بهم ، وصدقوهم في ما يقولون فقد خدموا دينهم وأنفسهم خدمة باهرة ، وان كان غير ذلك فأساءوا استعمالها واستغلوها لمصالحهم الشخصية على حساب الدعوة الدينية ، ورجالها المخلصين وجهودهم في سبيل نشر هذه الدعوة ، وقيام هذه الحكومة ، كما فعلت الدولة الاموية

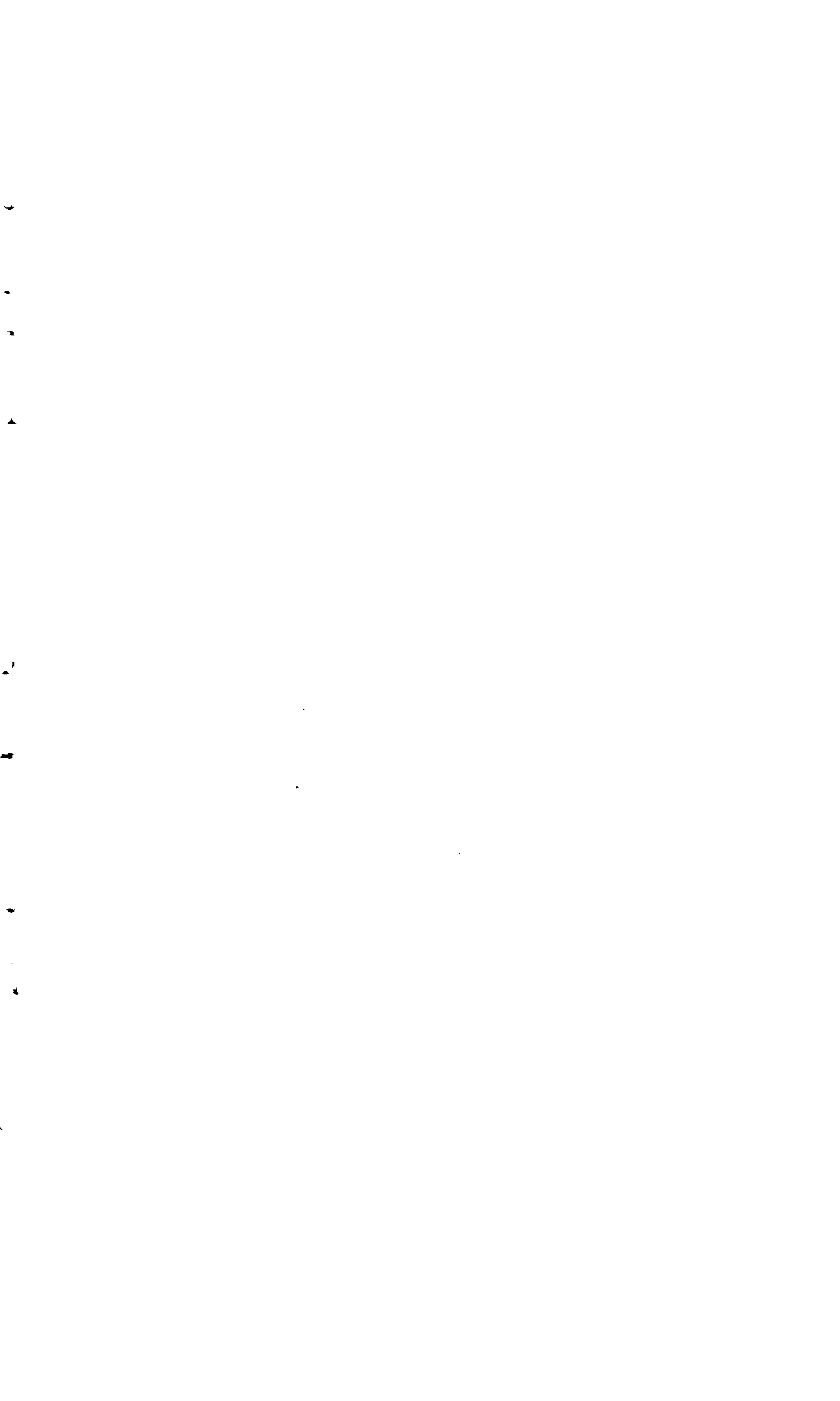
والعباسية ودول كثيرة ، فقد ضيعوا الفرصة وخسروا دورهم ، وخسرت معهم الدعوة التي وصلت أسبابها بأسبابهم دورها ، وما يعلم أحد متى يعود هذا الدور ، وهل يعود أو لا ؟ فقد شهد التاريخ أمما وجماعات كثيرة ضيعت فرصة حكمها وسلطانها ، ولم تنتفع بها ، وانتهى دورها القصير أو الطويل فوقفت مع المتفرجين المنعزلين وبقيت تنتظر دورها في حلبة الامم ، وتعض على تفريطها ببنان الحسرة والندم .

هذا والى الحكومات الاسلامية ومن كان على رأسها أن ينتهزوا الفرصةويحرزوا قصب السبق، ويبلغوا بهمتهم وعنايتهم الى حيث لا يبلغ اليه كبار الصالحين والاتقياء بعبادتهم وزهدهم ، وذلك بما آثرهم الله من حول وطول ، ونفوذ وسلطان ، وفرص لا تتأتى لغيرهم،ولهم أن يصلوا في خدمة هذا الدين واعادة شبابه ، واصلاح المجتمع وتغيير اتجاهه ، من الجاهلية الى الاسلام في يوم واحد — اذا أرادوا بذلك وصحت عزيمتهم وصدقت نيتهم — مالا يصل اليه المصلحون ، والمؤلفون والعاملون في أعوام وقرون ، وينالوا من رضى الله وثواب الدنيا وحسن ثواب الآخرة ، ما يغبطهم عليه كثير من العباد والمتقين ، وعباد الله الصالحين .

وما أطلق الناس على عمر بن عبد العزيز لقب المجدد الكبير والخليفة الراشد الا بتغييره مجرى الحكومة من الجباية الى الهداية ، والاصلاحات التي قام بها،وبرجولته

وعصاميته في سبيل مبدأه ، ولو وزن ما تنازل عنه من نعيم زائل ومتاع فان ، وآنواع من لباس وطعام ، ودواب وأنعام ـ كان لابد أن يتركها يوما من الايام ـ لو وزن ذلك كله بما اكتسب من نعيم لا ينفد،وقرة عين لاتنقطع، وما يرجو من مرافقة محمد صلى الله عليه وسلم وأصحابه والالتحاق بحزبه ، وما جعل الله له من لسان صدق في الآخرين ،لرجح ما اكتسب رجحانا واضحا ، وعد من كبار الاذكياء وعقلاء العالم .

• • •



دَعوتَـان مُتنَافسَتَان

لم تزل في الدنيـا منذ وجـدت دعوتـان متنافستان متصارعتان ، دعوة تدعو الى اتباع النفس وتحكيمها ، والى حرية الانسان المطلقة ، التي لا تقف عند حد ــ الا اذا اضطرت الى ذلك ــ وان كان في غضون هذه الحرية وأثنائها مئات وآلاف من أنواع الرق والعبودية • ودعوة تقول : ان الانسان عبـد لله ، مكلف ومسئول أمـامه ، وتدعو الى اتباع الوحي من الله وشرائع الانبياء •

الدعوة الاولى هي « الجاهلية » في مصطلح الاسلام الواسع ، والدعوة الثانية هي دعوة الاسـلام نفسـه ، واقتسمت هاتان الدعوتان أمم العالم وأجياله ، ولم تزل تتداول قيادتهما وتمثيلهما من حـين الى حـين ، وليس تاريخ الاديان والعقل والاخلاق ، الا حكاية هذا الصراع المستمر ، والنزاع الدائم ، وذلك أكبر صراع وأوسعه ، شهده العالم في عمره الطويل •

ومنذ ثلاثـة عشر قرنا ونصف ، اختـار الله لقيـادة

الدعوة الثانية ـ الاسلام ـ أتباع محمد صلى الله عليه وسلم ، وكتب لهم الامامة في ذلك الى يوم القيامة .

كذلك لم تزل تمثل الدعوة الجاهلية وترأسها أمم وحضارات جاهلية في عصورها ودوائرها ، حتى قضى ربك أن تتولى زعامتها وتحمل رايتها أمم أوربا النصرانية قبل نحو قرنين ، وانما رشحها لهذا المنصب وجعلها حاملة لرسالة الجاهلية في العالم مجاهدة في سبيلها ، سوء تمثيل النصرانية المحرّفة للدين المطلق ، ورهبانيتها وعجزها عن حل القضايا الانسانية والمعضلات البشرية ، ثم سوء تمثيل علمائها وكهنتها ، وقُسُسها للنصرانية نفسها ، وبما حالوا بين أمتهم وبين الرقي والتقدم ، وبما أذاقوا العلماء الأحرار والمكتشفين من أنواع العذاب التي تقشعر لها الجلود ، وتتفطر منها مرارة الانسان مما حفظه لنا تاريخ الصراع بين الدين والمدنية ، والدين والعقل ، والدين والعلم في أوربا ، زد الى ذلك كله تهور الثائرين على النظام القديم وطيشهم ، فكان عاقبة ذلك أن أصبحت أمم أوربا وهي المتحفزة للنهوض ، الطامحة الى الرقي تبغض الدين مطلقا ، وتتحرر من كل نظام قديم ، وتعادي كل دعوة دينية خلقية ، وترى فيها حجر عثرة في سبيلها ، وفي أصحابها عدوا لدودا للرقي الانساني

وعلى كل تحولت أمم أوربا جاهلية مادية محضة ، وكان

هذا التحول من أتعس الحوادث التي وقعت في التاريخ والذي قد جر على الانسانية شقاء طويلا وويلا عظيما ، ولكنه كان واقعا لا محالة لاسباب طبعية عقلية ٠

وتقدمت أمم أوربا الفتية المتحمسة لغزو العالم وفتحه ، وقد أخذت له أهبته وأعدت له عدته فكان بحكم الطبيعة أن تصادم ممثلي الدعوة الثانية المضادة لها، وهم المستولون على أجمل رقع العالم المتمدن المعمور ، وعلى أهم بقاع الارض سياسيا وجغرافيا ، وأخصبها وأثراها اقتصاديا ، وكان بديهيا أن يقع أول صراع وأكبره بين هاتين الفئتين ، فكان ذلك !

كان ذلك والمسلمون منذ أمد بعيد ، قد فقدوا روح الرسالة التي كانوا يحملونها ، والتي قد أصبحوا بقوتها سيلا جارفا جبارا لا تقاومه الحشائش ، ولا تقف في وجهه الصخور ، وقوة المسلمين وروحهم دائما من الرسالة والدعوة ، فأضحوا لا يحملون رسالة الاسلام الى العالم ، ولا يدعون دعوة دينية تنفخ فيهم الحماسة والفتوة ، ويأتون لها بخوارق ومعجزات ، وتفتح لهم هذه الرسالة قلوبا وعقولا ، وتسخر لهم ممالك ودولا ، وأصبحوا جيلا من الناس كسائر الاجيال ، يرى ما يحدث في العالم من خير وشر وما يسود فيه من حق وباطل ، هادئا مطمئنا ، كمتفرج أو كعاجز ليس له من الامر شيء ٠

وفقدوا الايمان والحماسة الدينية ، ففقدوا القلوب التي كانوا يلقون بها عدوهم ، وسلاحهم الذي كـانوا يقارعون به فيهزمـون أضعافهم في العـدد والعُـدد ، وأصبحوا كسائر الناس لا يمتازون بمزيد قوة ولا بزائد يقـين ، يألمون كما يالمون ولا يرجـون من الله ما كانوا يرجون ٠

وفقدوا الاخلاق والفضائل التي كانت لهم قوة روحية وسلاحا ماضيا في معترك الحياة ، دانت بها لهم الجبابرة ، ولانت بها صخور القلوب ، واستبدلوا بها عيوبا وأدواء خلقية واجتماعية ، أخذوها من الامم الجاهلية المنحطة التي عاشروها وسرت فيهم أيام ترفهم وانحطاطهم الخلقي والاجتماعي ، فكانت كدابـة الارض تأكـل منسأتهم ، وتنخر الدعائم التي قام عليها بناؤهم ٠

ونضب معين علومهم ، وجمدت قرائحهم وعقولهم ، وحرموا الاجتهاد ، والتفكير ، وقوة الاكتشاف والابداع ، ومني علماؤهم بجمود عقلي وركود علمي ، لا يزيدون في ثروة العلم ، ولا يفتحون للعقل أبوابا ومنافذ جديدة ، ولا ينظرون في علوم الطبيعة والكون ، بينما كانت أوربا تسخّر لمصالحها قوى الطبيعـة ، ويكشف علماؤها عن أسرار الكون ، ويتخذ عاملوها نفقا في الارض وسـلما في السماء ٠

أما الامراء والملوك المسلمون فقد تركوا الجهاد في سبيل الله منذ قرون ، واشتغلوا عنه بحروب بغضاء ومنافسة ، وشهوات ومطامع ، حتى دهم الاسلام الزحف الصليبي فلم يقم له الا صلاح الدين الايوبي وبعض الافراد المتصلين به • ومرت كارثة الاندلس وكأن لم يكن شيء ، وزحف التتار والمغول ـ ذلك الجراد المنتشر ـ فنهكوا قوى المسلمين ، وزادوهم وهناً على وهن •

هذه هي العوامل التي ساعدت الاوربيين في فتحهم وانتصرت بهم الجاهلية على الاسلام ، فكان أكبر انتصار نالته الجاهلية على الاسلام منذ زمن طويل ، ولو تكلمت لقالت : اليوم انتصفت من عدوي ، وأخذت ثار الامم التي فتحها والدول التي محاها، والحضارات التي طمسها ومن اليوم أزدهر في بلاده وأخصب في نجاده ووهاده ، وأجري مجراي لا يسد تياري شيء •

لو قالت لصدقت ، لان المسلمين ـ على علاتهم ـ كانوا أمناء لرسالة الانبياء ، حملة لمصابيح شرائعهم ، وحرزا للدين في الدنيا ودرءا للاخلاق والفضيلة على كل حال ، وكانوا أعظم سد في وجه الجاهلية ، ويتحولون أكبر خطر عليها في كل وقت •

كانت رزيئة المسلمين في هذه الهزيمة عظيمة وخطبهم فادحا جدا ، فقد خسروا بلادهم التي كانت تفيض لبنا وعسلا ، وخسروا جميع

دولهم تقريبا ، ومنوا بنوعين من العبودية السياسية والعقلية ، وحيث أفلتوا من العبودية المادية لم يفلتوا من العبودية العلمية والخلقية ٠

ورزئوا في أخلاقهم التي أورثتهم اياها تعاليم الانبياء ، والمحاسن التي حافظوا عليها طوال هذه القرون : من صدق وأمانة ، وشجاعة ووفاء ، وعفة وطهارة ، وكرم وتواضع ، وتقوى الله في السر والعلانية، ومراقبة حدوده الى غير ذلك ، مما يمتاز به اتباع الشرائع السماوية عن أهل الجاهلية ، وتسلطت عليهم بتأثير الامم الغربية العيوب الخلقية، والمخازي البشرية التي ورثتها أوربا من روما ويونان الوثنيتين ، ومن قرونها المظلمة ، ومن جاهليتها : كالنفاق والرياء ، والغدر بالعهود ، اذا دعت الى ذلك مصلحة ، والجشع المادي والايمان بالقوة وحدها ، والاحترام للمال والثروة وحدها ، وتقديم المصالح والمنافع على الاخلاق والفضائل ٠

وما كانت رزيئة الانسانية في هذا الانتقال بهينة ، فتزلزلت مباني الاخلاق والفضيلة في كل صقع وقطر ، وحدثت ثورة على كل نظام قديم، وان كان عادلا وحسنا، وعمت الفوضى في البيوتات والاسر ، وتغير الولد للوالد وعقه ، وتركت المرأة بعلها وثارت عليه ، وانحلت عقد الارحام ، ولم يعد الصغير يوقر الكبير ، ولم يعد الكبير يرحم الصغير،وتعوضت القلوب من الالفة والمحبة الجفاء والبغضاء ، وكثر التنافس في الحياة الدنيـا وفي الرقـي المادي ، وفي أسباب الجاه والثروة، وتولدت من ذلك ثروة وآفات كدرت صفو الحياة وأماتت القلب والروح ، الى غير ذلك من الظواهر التي تشكو منها كل ديـانة وكـل

حضارة شرقية بثها وحزنها ، ومما يشترك فيه المسلمون وغيرهم من الشرقيين .

ثم ان هذه الامم قد أصبحت تتحكم في أموال الناس ونفوسهم وأرزاقهم ، وأصبحت تملك السلم والحرب ، وأصبح العالم في حضانتها كولد يتيم أو شاب سفيه لا يملك من أمره شيئا ، فتارة تسوقه الى ساحة القتال ، وطورا تملي عليه الصلح ، وليس له في صلح أو حرب يد مرفوعة أو كلمة مسموعة .

ماذا عسى أن يكون أثر هذه الهزيمة والرزية العامة في نفوس المسلمين وفي نفوس بني آدم عامة ؟

أما الناس عامة فلكل انسان أن يجيب عنه،وسيجيبون عنه ، أما المسلمون وهم أولى بأن يوجه هذا السؤال اليهم لان منهم انتقل هذا الملك الواسع والامر والنهي الى الاوربيين ، ولان دينهم يقتضي أن يكون ظاهرا على كل دين ، وأن يكونوا هم الاسوة وحدهم للعالم ، فسيقول كل مسلم لم يمت قلبه : ان من الطبيعي أن تنطوي صدور المسلمين على احن وأحقاد للجاهلية،وأن ينظروا الى كل من يمثلها في كل مكان كعدو غاصب،وغريم منافس . وأن طبيعة رسالتهم ودعوتهم في العالم تقتضي بداهة أن تعزل الامم الجاهلية من قيادة العالم،والتأثير في عقول الناس وتوجيه

أفكارهم ، وأن تمنع من تمثيل الجاهلية في العالم ، وأن ينزع منها سلطانها حتى لا تكون في دعوتها فتنة لمفتون ، وحتى لا تنافس الدعوة الى الله دعوة ، ولا ينازع في الدنيا عاملان يتجاذبان النفوس والعقول الى جهتين مختلفتين ، (حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله) .

ويعلم كل ذي بصيرة بل كل ذي بصر أن مجرد سيادة هذه الامم ، واستعلائها السياسي والمادي دعاية عظيمة لدينها ، وحضارتها ومبادئها ، ومناهج فكرها وأخلاقها ، لا يقاومها منطق ولا استدلال ، ولا حجة ولا برهان ، ولا فلسفة ولا أخلاق ، ولا تنجح ضدها دعوة الاديان ، وانها قد أصبحت بزخارفها مغناطيسا للقلوب ، تنجذب اليها كما ينجذب الحديد .

هذه هي الحقيقة التي ذكرها موسى عليه الصلاة والسلام فيما حكى القرآن عنه في دعائه الذي دعا به في مصر على عهد فرعون ، وهي حقيقة في كل عصر ومصر :

« ربنا انك آتيت فرعون وملأه زينة وأموالا في الحياة الدنيا، ربنا ليضلوا عن سبيلك، ربنا اطمس على أموالهم، واشدد على قلوبهم ، فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الاليم » (١) .

---

١ ــ الآية ٨٨ من سورة يونس .

فماذا كان المنتظر من المسلمين ــ وهم حاملوا رسالة الاسلام ــ ؟ كان المنتظر منهم أن يروا في أوربا وأمريكا زعيما للجاهلية ، الذي تولى كبرها وحمل رايتها في الآفاق • وكان الواجب أن تكون هذه المسألة هي أمّ المسائل وكبراها في نظرهم ، وأن تشغل ذهنهم وتستغرق سعيهم ، وكان الواجب أن يعدوا أنفسهم في كل ناحية من نواحي العالم ممثلين لدعوة الاسلام ضد هذه الدعوة الجاهلية، وأن لا يتخذوا موقفا مهما كان اقتضاء المصالح الوطنية والسياسية والمالية ، لا يتفق وممثلي الاسلام وحاملي رسالته ، وأن لا يأتوا بشيء تتغذى به الحركة الجاهلية في العالم ، وأن لا يظهر منهم شيء ينم عن ركونهم الى هذا النظام الجاهلي الذي بسطته هذه الامم في العالم ، وتريد أن تبسطه ويظهر به تعاونهم على الاثم والعدوان ، الذي لا عدوان أكبر منه •

ولكن مما يبعث الاسف العميق والعجب الشديد في النفوس « عجبا يميت القلب ويشغل الفهم ، ويكثر الاحزان » كما قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه في خطبة له ، ان المسلمين عامتهم لم يدركوا هذه الحقيقة مع وضوحها وانجلائها ، وذهلوا عن موقفهم الصحيح في العالم ، ونسوا وجهلوا أنهم والامم الاوربية الجاهلية دعاة لنظامين للحياة متضادين ، ولحضارتين متناقضتين ،

وأنهم وإياها ككفتي ميزان ، كلما رجحت واحدة طاشت الاخرى .

وأصبح المسلمون أخيرا لجهلهم للدين وما يقتضي من حب وبغض ، وبتأثير الدعاية ، يرون الى الجاهلية الاوربية كالحليف الوحيد للاسلام ، وأنهم يقرعون بين أممها ودولها أيها أقرب اليهم ، وأنفع لمصالحهم ، وأغراضهم السياسية والمالية ، ويجهلون أنها مهما اختلفت في نظمها السياسية ، وفي ادارتها الداخلية ، أو سياستها الخارجية ، ومهما تعادت وتباغضت فيما بينها ، فانها أخوات شقيقات من أب واحد وأم واحدة ، وآنها لا تختلف في المبادىء الاولية وفي فلسفتها التي يسميها الاسلام « الجاهلية » وغاب عن عقلاء المسلمين والمتعلمين منهم بل وقادتهم وزعمائهم ، ــ فضلا عن العامة ــ أنه ما دامت هذه الامم تتمتع بالغلبة السياسية ، وما دامت لها سيطرة على العالم فهي المثل الكامل والقدوة المثلى في الاخلاق والسيرة، والعلم والمدنية ، والفضائل والرذائل، وما دامت كلمتها عليا فلا تزدهر للدين دعوة ، ولا تعلو له كلمة ، ولا تسود في العالم الاخلاق الفاضلة ولا تكون لها قيمة ، ففي مصلحة الاسلام وفي مصلحة الانسانية أن تعزل بأسرها عن قيادة العالم ، ولما كان المسلمون هم المسؤولين وحدهم عن صلاح العالم وفساده ، ووظيفتهم

الحِسبة على الناس ، وهم القوامون بالقسط ، شهداء لله، وهم المراقبون لسير العالم ، فلهم أن يجتهدوا في ذلك أكثر من كل شعب وأمة ، بل يجب عليهم أن يكونوا طليعة ، وأن يكونوا اماما في الحركة ضد الجاهلية وأممها ، بل يجب أن تبدأ منهم الدعوة واليهم تعود ٠

ولكن أجل نظرك في العالم الاسلامي كله وانظر في شعوبه وأممه ودوله ـ ان كانت فيه دول تملك أمرها ـ وفي جميع طبقات المسلمين ، هل ترى شيئا تستدل به على أن هذه الامة المنبثة في أرجاء الارض صاحبة رسالة في العالم وصاحبة دين وعقيدة ، وأنها تنكر مما وقع وواقع شيئا ؟ وتحمل في صدرها حفيظة ضد الجاهلية وأهلها ، وتريد أن ترفع للاسلام راية وتجتهد لاعلاء كلمة الله ؟

كلا ! بل ترى أمة هادئة مطمئنة راضية بكل ما يقع في العالم اليوم ، سليمة الصدر، قريرة العين ، ناعمة البال، تتعاون مع الجاهلية وأممها وتتحالف ، وتقدم لها كل معونة تقدر عليها ٠

لمثل هذا يذوب القلب من كمد
ان كان في القلب اسلام وايمان !

أجل ان كان في القلب اسلام وايمان لما ارتضى مسلم بهذا الخزي، ولكن كل ذلك يرجع الى كون الرجل مسلما،

يحب لله ويبغض لله ، ويوالي في الله ويعـادي في الله ، ولذلك ذكره القرآن شرطا في قوله :

« يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوي وعدوكم أولياء تلقون اليهم بالمودة ، وقد كفروا بما جاءكم من الحق ، يخرجون الرسول واياكم أن تؤمنوا بالله ربكم ان كنتم خرجتم جهادا في سبيلي وابتغاء مرضاتي ، تسرون اليهم بالمودة وأنا أعلم بما أخفيتم وما أعلنتم ، ومن يفعله منكم فقد ضل سواء السبيل . ان يثقفوكم يكونوا لكم أعداء أو يبسطوا اليكم أيديهم وألسنتهم بالسوء ، وودوا لو تكفرون » [1] ثم ضرب لذلك مثلا بابراهيم وأصحابه:

« قد كانت لكم أسوة حسنة في ابراهيم والذين معه اذ قالوا لقومهم : انا برآءُ منكم ومما تعبدون من دون الله ، كفرنا بكم ، وبدا بيننا وبينكم العداوة والبغضاء أبدا حتى تؤمنوا بالله وحده » [2] .

يلاحظ القارىء العربي النكتة في قول ابراهيم وأصحابه « كفرنا بكم » وبلاغة الكلمة وسعتها ، فلم يقولوا كفرنا بدينكم كأنهم قد أصبحوا صورة وتمثالا للكفر والجاهلية ، جامعين لمعانيها وأشكالها ومظاهرها ، ولان حياتهم كلها

---

١ ــ الآيتان ١ و ٢ من سورة الممتحنة .
٢ ــ الآية ٣ من سورة الممتحنة .

وما يتصل بها من علوم وفلسفة ، وحضارة وثقافة قد سرى فيها روح الكفر والجهل ، وذلك ينطبق على كل أمة جاهلية حرمت هَدي الانبياء وعلومهم ، وبنت حياتها وعلومها ومدنيتها على دلالة الحواس أو على القياس أو التجارب ، فعم الانكار لجميع هذا وكأنهم أعلنوا بهذا اللفظ أنهم ثائرون على هذا النظام الجاهلي برمته وحذافيره ، جاحدون به كافرون بأصحابه ، لا يؤمنون لهم بفضل ولا يخضعون لهم بشيء !

ثم لينظر القارىء ويعتبر كيف أن المسلمين وهم أتباع دين وأصحاب يقين ، قد آمنوا بزعماء الجاهلية وأئمة الكفر ولو لم يؤمنوا بدينهم ، ولكنهم آمنوا بهم بأوسع معاني الكلمة وقد اشترط الله للايمان به الكفر بالطاغوت وقدم عليه وقال : « فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى » .

أما اذا أصبح المسلمون لا يعنيهم أمر الدين والاخلاق ، ولا يهمهم مصير الانسانية ومستقبل العالم ، ولا تهمهم الا المصالح السياسية والفوائد المادية الحاضرة التي تعود على بلادهم أو شعبهم ، وبالاصح على أشخاصهم ، فحبلهم على غاربهم ، وأمرهم بيدهم ، ولكن ليعلموا أخيرا أن سفينة الجاهلية التي اختاروها لسفرهم قد أحيط بها ،

وأن ألواحها قد تآكلت ونخرت منذ زمن ، وأن ربابينها قد اختلفوا فيما بينهم في تسييرها وقيادتها ، ويعلموا أن هذه السفينة اذا غرقت فانها تغرق ركابها ، وكل من وصلوا أسبابهم بأسبابها ، ولا عاصم من أمر الله الا من رحم . وقد قال :

« ولا تركنوا الى الذين ظلموا فتمسكم النار ، وما لكم من دون الله من أولياء ثم لا تنصرون » (١) .

★ ★ ★

---

١ ــ الآية ١١٢ من سورة هود .

مَصْـرَع الجاهليّـَة

من الاساطير التي سمعنا في الصغر ، وبقيت في غضون الذاكرة وبعض ثناياها ، أن رجلا اعتدى عليه عفريت من الجن بمثل ما كان يعتدي به الجن على البشر ، فبرز الرجل بكل ما أوتي من حول وطول ، وبكل ما قدر عليه من سلاح وشكّة ليقتله .

هجم الرجل على العفريت بكـل سلاح ماض ، وسيف باتر ، وسهم مصيب ، ونثر كنانته ، ولم يدع في القوس منزعا،ولكنه لم ينكأ عدوه ولم يصب منه مقتلا، وما زال الرجل يعيد الكرة بعد الكرة ، ويجرب سلاحا بعد سلاح ، والعفريت ساخر منه غير محتفل به كأنه من نفسه عـلى أمان ، ومن سهام الرجل وهجماته في حصن حصين .

حار الرجل في أمره وأعياه أمر العفريت ، وكاد يقطع من قتله الرجاء اذ أخبره أحـد العقـلاء أن روح هـذا العفريت في حوصلة ببغاء ، وهذه الببغاء في قفص من حـديد ، وهـذا القفص معلق في غصن شجرة ، وهـذه

الشجرة في غابة كثيفة يسكنها سباع ضارية ، وحيات فتاكة ، وعقارب سامة ، ودونهـا خرط القتـاد وحولها شُمّ الجبال ٠

وما زال الرجل يطلع جبلا بعد جبل ، ويقطع واديا بعد واد ، ويقتل وحشيا بعد وحشي ، حتى خلص الى هذا القفص ، وخنق هذه الببغاء ولم يكد يقتلها حتى حدثت رجة عظيمة دارت بها الارض الفضاء ، وأظلمت بها آفاق السماء ، وصاح العفريت صيحته الاخيرة ، وكان جثة هامدة لا حراك بها ، وهكذا قتل الرجل عدوه بعدما لقي منه عرق القربة ٠

لعلك سمعت هذه الاسطورة من عجوز في بيت تحكيها لاحفادها أو أسباطها فمررت بها مستهزئا وقلت :

حديث خرافة يا أم عمرو ٠

نعم انها لحديث خرافة، وأسطورة من أساطير الاولين، ولكنها تفيدنا بأن كل حي له مقتل ووريد ، ولا يؤثر فيه عدو ، حتى يصيبه في مقتله ويقطع منـه الوريد ، وأن دون ذلك المقتل وحول هذا الوريد حواجز وحصونا ٠

قد تسلط على الامـة الاسلامية عفريت من الحيـاة الجاهلية ، واعتدى عليها بصنوف من الخبال ، وضروب من الاذى والوبال ، ظهرت في كثير من أخلاقها وأفعالها ،

كاستخفاف بأحكام الشرع، وتجرؤ على المعاصي ، ووقوع في محارم الله ، واستعباد لعباد الله ، وامعان في الشهوات ، واسراف في سبيل المتع واللذات ، وتهافت على الخسائس والرذائل ، وفرار عن مكارم الاخلاق والفضائل ، « وان يروا سبيل الرشد لا يتخذوه سبيلا، وان يروا سبيل الغي يتخذوه سبيلا »(١) .

والناس طبقات : عامة ، وأوساط ، وعظماء .

فأما العامة فمساكين تدور حولهم رحى الحياة بسرعة، لا يرفعون فيها الى الدين والسعادة الاخروية والاستعداد للموت رأسا ، وانما همهم أن يؤدوا ضرائبهم ، ويجمعوا لايام فراغهم ويكسبوا قوت يومهم ، ويكسوا عيالهم ، فهم يكدحون في الحياة كدح الحمير والثيران ، لا يتعبون الا للراحة الموهومة ، ولا يستريحون الا للتعب الواقع ، فهم من البيت الى الدكان ، ومن الفراش الى المصنع أو السوق أو الادارة ، ومن نصب الى نصب ، ومن هم الى هم ، لا تنتهي همومهم ولا تنقضي متاعبهم ، حتى اذا جاءتهم الساعة بغتة ، قالوا : يا حسرتنا على ما فرطنا فيها .

وأما الاوساط فهم أسوأ منهم حالا وأكدر منهم بالا ، عذبهم الله بالحرص والجشع ، ينظرون دائما الى من

---

١ ـ الآية ١٤٦ من سورة الاعراف .

فوقهم ولا ينظرون أبدا الى من دونهم ، فهم في هم متواصل ، وأحزان متسلسلة ، وشقاء مستمر ، وتذمر جار ، وشكوى قائمة ، وأنين باق ، يجرون في رهان لا تنتهي ، ويسابقون جيادا لا تكل ولا تسبق ، ولا يزال قصب السبق بعيدا ، كلما انتهوا الى غاية رأوا غاية أخرى ، فجروا وراءها وهي تبتعد عنهم ، كما يبتعد الافق من الطفل الذي يحاول مسكه ، وشعاع الشمس الذي يجتهد لقبضه ، وهكذا يتفلت منهم « المثل الاعلى » في الغناء والثروة ، والرخاء والجاه ، فيموت الواحد منهم كئيبا منكسرا ، لم يستعد ليوم الجد ولم يأخذ لنفسه عدتها ويأتيه الموت فيقول : « رب لولا أخرتني الى أجل قريب ، فأصدّق وأكن من الصالحين » [1] .

وأما العظماء ــ من الملوك وأبناء الملوك والامراء ــ فانهم يريدون أن يلتهموا الدنيا طولا وعرضا ، وينتهبوا المسرات جريا وركضا ، لا يشفى عليلهم ولا يروى غليلهم ، وهم من دقائق الراحة الى دقائق ، ومن بدائع الى بدائع ، ومن ابتكار الى ابتكار ، ومن لذيذ في الطعام والشراب الى ألذ ، ومن حديث من مستحدثات المراكب والقصور والازياء الى أحدث ، لا تكفيهم في ذلك موارد

---

١ ــ الآية ١٠ من سورة المنافقون .

قطر بأسره ومنابع ثروة أمة بطولها ، حتى يلجأوا الى استقراض وتجارات وضرائب جديدة وأتاوات ، ولا يبالون في سبيل ذلك أن يرهنوا بأيدي عدوهم رداء الزهراء ، أو كساء أبي ذر ، أو شملة أُوَيس ، أو مصحف عثمان، أو صمصامة عمرو بن معدي كرب، أو رمح الزبير ، أو بردة كعب بن زهير ، ويهيئوا صبوحا أو غبوقا .

وقد هجم على عفريت الجاهلية جيش من المصلحين فصاحوا به من كل جانب ، ورموه عن قوس واحدة ، ولكن لم ينكأوا عدوهم ولم يصيبوا منه مقتلا .

ألقى الوعاظ والآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر دروسا في الاخلاق ، وأحاديث في الترغيب والترهيب ، طمعوا الناس في الجنة ، وحذروهم من النار ، بشروهم بالوعد ، وخوفوهم من الوعيد ، فسمع الناس كل ذلك في هدوء ولم يحرك منهم ساكنا ولم يغير منهم خلقا .

ألف المؤلفون كتبا جاءوا فيها بكل رقيق مرقِّق ، أوردوا فيها حكايات زهد العُمَرين ، وتقشف علي بن أبي طالب ، ومواعظ الحسن البصري، وكلمات ذي النون المصري ، ورقائق الفضيل بن عياض ، وزهديات أبي العتاهية ، وفصاحة الواعظ ابن الجوزي ، وتحليل الامام الغزالي .

قوارع تبري العظم من كلم مض ٠

فقام الاغنياء والامراء وأبنـاء الملوك فاقتنوا هـذه الكتب ، وزينوا بها مكاتبهم ، وتحدثوا عنها الى ندمائهم وزائريهم في لباقة ورشاقة ، ولكن لم تنفـذ سهامها من العيون الى القلوب ، ولم تجاوز أحاديثها تراقيهم ٠

قـام الخطباء البارعون فألقـوا خطبـا أسمعت الصم واستنزلت العصم ، فسمعها هؤلاء وأثنوا على براعتهم وفصاحتهم ، ومضوا لسبيلهم لم يبكوا على زلة ولم يقلعوا عن سيئة ، ولم يحدثوا لله عهدا ٠

لقد كان ـ والله ـ أقل من هذا يهز القلوب في الجوانح، ويستفرغ الدموع من العيون، ويرجف القصور ، ويقلب عروش الملوك ،ويجعل من أبناء السلاطين والامراء مثـل ابن أدهم وشقيق البلخي ، يسمع أحدهم وهو خارج من قصر أو رائح الى لهـو قارئا يقرأ : « ألـم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله وما نزل من الحق »[١] (الآية) فيقول : والله لقد آن ، والله لقد آن ، ويرمي آلات اللهو ، ويخرج من أبهة الملوك وحشمة السلاطين الى تبذل الفقراء وتقشف الزهاد ٠

---

١ ـ الآية ١٦ من سورة الحديد ٠

فهل فقدت الالفاظ على تعاقب الايام معانيها ، أم اعتلت الاذواق ، أم استعجمت اللغات ، أم ماذا ؟

ان شيئا من ذلك لم يقع ، ولكن نفسية الانسان تغيرت تغيرا عظيما . كان أمر الدين في الزمان الماضي ـ برغم جميع أدوائه وعيوبه الخلقية والاجتماعية ـ ، جدا غير هزل ، وكان أمر الدين يعني كل واحد ويهمه كما تهم الحقائق والامور الواقعة ،وكان في بعض الاحيان حجب من الترف والطبع والرسم وسوء المعرفة وقلة العلم، فاذا ارتفعت هذه الحجب وتطرقت دعوة الدين الى القلوب لم يحل دون التوبة واصلاح الحال شيء .

أما الآن فقد أصبح الدين موضوعا تاريخيا أو حديثا علميا بحتا ، وأصبح الحديث عنه في المجتمع العصري كالحديث عن كوكب المريخ وعجائبه وعن القطب الشمالي وأخباره، لا يعود على المتحدث والمستمعين بضرر أو نفع، ولا يطالبهم بعمل أو ترك، ولا يمسهم في صميم مسائلهم، ولا يعني الانسان ولا يهمه في حياته الا بمقدار ما يتطرف بمعرفته ودراسته في بعض المجالس ، آو ما يحادث به أهله عند الحاجة، أو ما يجلب به نفعا ويدفع به ضرا في مجتمع لا يزال يدين بالدين أو يحترمه ، فليس له الا قيمته المادية المؤقتة .

وأصبحت الحياة وتكاليفها جد الجد ولب اللباب ، وأصبحت مسائلهم همّ الشيخ ودرس الصبي وشغل الشاب ، وأصبح الجهاد في سبيلها والنجاح في ميدانها مقياس الفطنة والذكاء ومعيار الظرافة ، واللباقة ، ورمز المروءة والشهامة .

وهنا يقف الداعي الديني حائرا في أمره كيف يواجه هذه العقلية الهامدة والنفسية الباردة في سبيل الدين ، انه واجه العقول الثائرة على الدين فأخضعها ببراهينه ، ووجد شكوكا وريبا تمكنت من النفوس ، فسلّها بحكمته وملأ القلب ايمانا وطمأنينة ، ولكن ههنا يجد نفسه في موقف غريب لم يعهده ، فلا انكار ولا جحود ، ولا اباء ولا استكبار ، ولا عناد ولا اعتراض ، ولا دليل ولا فلسفة ، ولكن حياد تام في مسألة الدين ، واستغناء عن كل ما يتصل بالآخرة ، واخلاد الى الارض ورضى بالحياة الدنيا واطمئنان بها .

هنا يقف الداعي حائرا في أمره كيف يواجه هذه النفسية ومن أي باب يدخلها ، انه يجد حولها غشاء من حب الدنيا والمال فلا سبيل اليها ولا نفوذ فيها الا بطريق الدنيا والمال ، وأن سبيل الدين غير سبيل المال ، وأن طريق الغيب غير طريق الحس والشهود ، فماذا يصنع ومن أين يبدأ ؟

ان ألقـى على القـوم نصائحه ووجـه اليهم خطـابه وحكمته ، ونثر كنانته في الدين وأجلب عليهم بخيل العلم والبراهين ، ذهب كل ذلك فيهم سـدى ، وأجـابه لسان الحال قائلا : « قلوبنا في أكنة مما تدعونا اليه ، وفي آذاننا وقر ، ومن بيننا وبينك حجاب، فاعمل اننا عاملون »(١) ٠

قرأنا في حكايات « ألف ليلة وليلة » أن سندباد البحري وجد بيضة عنقـاء ، فظنها لكبرهـا وضخامتها وملاستها قصرا من الرخام ، فدار حولها لعله يجد بابا يدخل منه في داخل القصر ، ودار مرارا عديدة ولكنه لم يجد بابا ، وعرف بعد ذلك أنها بيضة عنقاء ، لا قصرا من القصور ٠

كذلك يدور الداعي حـول هـذه النفسية المستديرة التي استهوتها الدنيا وغشى عليها حب المال أو الجاه ، فلا يجد فيها منفذا ينفذ منه الى النفسية وينزل في أعماقها ، فيقطع منها الرجاء ، وينقلب منها خاسئا وهو حسير ٠

اذن روح هـذا العفريت الجاهلي ، هو الاخـلاد الى الارض ، الرضى بالحياة الدنيا والاطمئنان بها ، وعبادة المال والمادة ٠

هذا مقتل هذا العفريت وهذا أبهره ووريده ٠

---

١ ـ الآية ٥ من سورة فصلت ٠

وانما ضاعت فصاحة الفصحاء ، وخطابة الخطباء ، وبلاغة المؤلفين وأصحاب اليراع ، واخلاص المخلصين وحكمة الحكماء ، لانهم لم يضربوا على الوتر الحساس ولم يصيبوا العدو في مقتله ٠

بلغت المادية أوجها في عهد الاستيلاء الاوربي ، وأصبحت فلسفة وفنا وحياة ودنيا ، وليس من مظهر من مظاهر حياتها ولا مركز من مراكز نشاطها اليوم الا والفضل فيه يرجع الى أوربا وسيطرتها السياسية والاقتصادية مباشرة أو بواسطة ، والى غزوها التجاري العالمي ٠

نافس تجار الغرب بدافع من حب الغنى والثروة ، واحتكار الاموال في الصناعة والانتاج، وغزوا ببضائعهم الشرق وامتصوا بها دماءه ، ولم يقض ذلك لبانتهم لان نطاق الضرورة ضيق ، والجشع ما له نطاق ، فنافسوا في انتاج دقائق المدنية وفضول الصنائع وكماليات الحياة وصبوها على الشرق صبا،واستهلكوا في ترويجها كل ذكاء وأدب وفلسفة وسياسة ، واستغلوا سذاجة الشرق وحبه للدعاية والفخر ، فما لبثت هذه الدقائق والكماليات أن دخلت في أصول المعاش ولوازم الحياة في الشرق ، وأصبح الذي لا يتحلى بها لا يعد من الاحياء ولا يعامل في المجتمع معاملة سواء ، وأخذت بتلابيب الشرقي وأذهلته عن

الدين والآخرة وعن كل شيء غيرها في الدنيا ، وأهاجت عليه هموما لا أرجاء لها ، وبعثت فيه شرها للمال لا نهاية له ، وأصبحت عليه الحياة جحيما لا يسمع فيها الا : هل من مزيد ٠

وما يكاد الشرقي يصل الى هذه المنتجات وشروط الحياة الا على جسر من المتاعب والمصائب ، وعلى طريق من شوك وقتاد ، ولا يكاد يتحلى بها الا وتصبح هذه المستحدثات آثارا عتيقة وأطمارا بالية ، ويهجم عليه الغرب بطراز حديث من المنتجات والمصنوعات ، فينكص على عقبيه ويتزود لاقتنائها بالمال اللازم ـ بوجه مشروع أو غير مشروع ـ ولا يكاد يطلع بها على مجتمعه الا ويرحل المنسوخ ويحل الناسخ ، وهكذا لا يزال من حياته في جهاد مضن شاق ومع المصانع الغربية والتصدير الغربي في رهان دائم ، يسبقه فيلحقه ويلحقه فيسبقه ، ولا يزال من عيشه في مضض وغصص يتجرعه ولا يكاد يسيغه ، ويأتيه الموت من كل مكان وما هو بميت ٠

أفسدت المدنية الغربية والتجارة الغربية طبائع أهل الشرق وأذواقهم ، على اختلاف أجناسهم وأوطانهم ، ألانت منهم القناة وأطفأت فيهم جمرة الحياة ، أذهبت منهم التمعدد العربي والتجلد العجمي ، وأحدثت فيهم التخنث والتأنث الاوربي ، وأصبحت الفروسية العربية ،

والنخوة التركية ، والفتوة الفارسية، والبطولة الهندية، والغيرة الافغانية حديثا من أحاديث التاريخ ، وأصبحت الحياة في حواضر الشرق ، بل وفي بواديه نسخة قاصرة ممسوخة من الحياة الغربية المصطنعة ، لها ضراؤها ، وليست لها سراؤها ، ولها الغرم دون الغنم .

أصبح الناس في كل البلاد في تيار الحضارة الغربية يسيل بهم سيلها الجارف ولا يملكون من أمرهم شيئا ، وأصبح الوالد لا يملك ولده ، والعاهل لا يملك أهل بيته ، بل وأصبح الانسان لا يملك نفسه أمام الهوى ، وانتقاد المجتمع اللاذع ، ووخز الضمير ، وغاص الناس في بحر المدنية الى آذانهم ، فترى الصعاليك من العجم يغدون في حلة، ويروحون في أخرى ، وترى الحفاة العراة العالة من العرب رعاء الشاء يتطاولون في البنيان ، ويتفاخرون باقتناء السيارات الاميركية من أحدث الطراز ، وأفخر الانواع ، حتى يُخاف أن تنقرض الخيل العتاق من أرض الجزيرة التي ملأت التاريخ والادب بحديثها وأخبارها .

شحنت البضائع الغربية أسواق الشرق الاسلامي ، وأنبتت شرايين التجارة الغربية وعروقها ـ وهي طلائع السيادة الغربية ، وسيطرتها السياسية وسهامها التي لا

تطيش ـ في جـوف أقدس البـلاد الاسلامية و أحشائها ، وجاست خلال الديار ، وأصبح أهلها عالة على البضائع الاجنبية ،حتى عادوا لا يتصورون الحياة و المعيشة بغيرها ، ولا يقضون حقوق الاعياد والافراح الا بها ، وامتصت هذه البضائع أموالهم بل دماءهم كالاسفنج ، يتشربها في بلادهم ويصبها في بلاده ، وهكذا أصبح ما يكسبه المسلم بعرق جبينه وكدّ يمينه ، وبرزيئة في أخـلاقه ، وعلى حساب دينه ينتقل الى البلاد الاجنبية ٠

التجـأت الحكومـات الاسـلامية لتحقيق مشـاريعها العمرانية كما تقول ، أو لقضاء مآرب رجالها كما يقول الناس ، الى الاستدانة من الدول الاجنبية ، فخفت لذلك ورحبت به ورصدت لهـا بعض المـال بشروط تجـارية وامتيازات سياسية ، وأقبلت البـلاد الاسلاميـة تحلب ضروعها وتستخرج الذهب الوهاج ، وماء حياة الصناعة والتجـارة (البترول) من بطونهـا ، ويتهافت الفقراء الذين أجهدتهم الضرائب وتكاليف الحيـاة على أجورها وخدمتها تهافت الفراش على الضوء ،والجياع على المائدة، وهكذا تصبح بـلاد الاسـلام بين أخطـار من الالحـاد والاحتلال الاجنبي ٠

ثم هنالك « الطابور الخامس » وهو ذلك الادب المسلول المسموم الذي ولدته الثورة الفرنسية ، وأرضعته الفوضى الخلقية والاباحة في

أوربا ، وغذته الشيوعية ، ذلك الادب الخليع المستهتر ، الذي ينبت في القلوب النفاق ويسقي غرس الشهوات ، ويقوّض دعائم العمران ، ويفسد نظام الاسرة ، ويسخر من كل فضيلة ، ويستهين بكل أدب ونظام ، ويزيّن للقارىء مذهب اللذة والانتفاع ، وانتهاز الفرص ، يلخص التاريخ ويوجز الفلسفة والعلم في حب المال والميل الجنسي ، ويصور العالم كله ، كأنه ليس الا ظهور هاتين العاطفتين ، وليس وراء ذلك حقيقة علمية ، ومبدأ سام أو غرض شريف .

وقد انتشر هذا الطابور فيأنحاء العالم عنطريق الادب والروايات والمجلات « والراديو » و « السينما » وتأثر به الحاضر والباد ، وتحدثت به العواتق في خدورها ، وصار ينخر الحضارة الدينية والادب الاسلامي حتى تسرب العطب اليوم الى لبابه .

وهكذا أصبح العالم كله شعوبا وحكومات وأفرادا تحت سلطان المادية والقوة والجاه والشهوات ، قد شغلت منه كل موضع ومنفذ ، وملكت عليه جميع مشاعره ، واستهلكت في سبيلها جميع مواهبه وقواه وتفكيره وذكاءه ، وخلقت في الانسان نفسية لا تؤمن الا بالمحسوس ، ولا تفكر الا في اللذة والهناءة والسعادة الدنيوية ، ولا تهتم الا بهذه الحياة ومطالبها الكاذبة التي ما أنزل الله بها من سلطان ، والتي انما فرضتها على الانسان الحياة المزورة ، والمجتمع الفاسد ، والتجارة الجشعة .

كيف يحل في هذه النفس المادية الدين الذي أساسه الايمان بالغيب ، وايثار الآخرة على العاجلة ، الذي يقول : « وما هذه الحياة الدنيا الا لهو ولعب وان الدار الآخرة لهي الحيوان لو كانوا يعلمون [1] » والذي يقول : « فأما من طغى وآثر الحياة الدنيا ، فان الجحيم هي المأوى ، وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى ،

---

١ ـ الآية ٦٤ من سورة العنكبوت .

فان الجنة هي المأوى [1] » .

والذي يقول نبيه صلى الله عليه وسلم : « اللهم لا عيش الا عيش الآخرة » ويقول : « حُفّت الجنة بالمكاره » .

اذن فالمادية في هذا العصر هي علة العلل وعدو الدين الالد ، ومنافسه الاكبر ، وان الغرب هو زعيمها الذي تولى كبرها ، ووكرها الذي تطير منه وتأوي اليه ، وفيه تبيض وتفرخ .

فأين ذلك البطل الذي يمثل قصة الآدمي مع الجني على مسرح التاريخ والواقع ؟

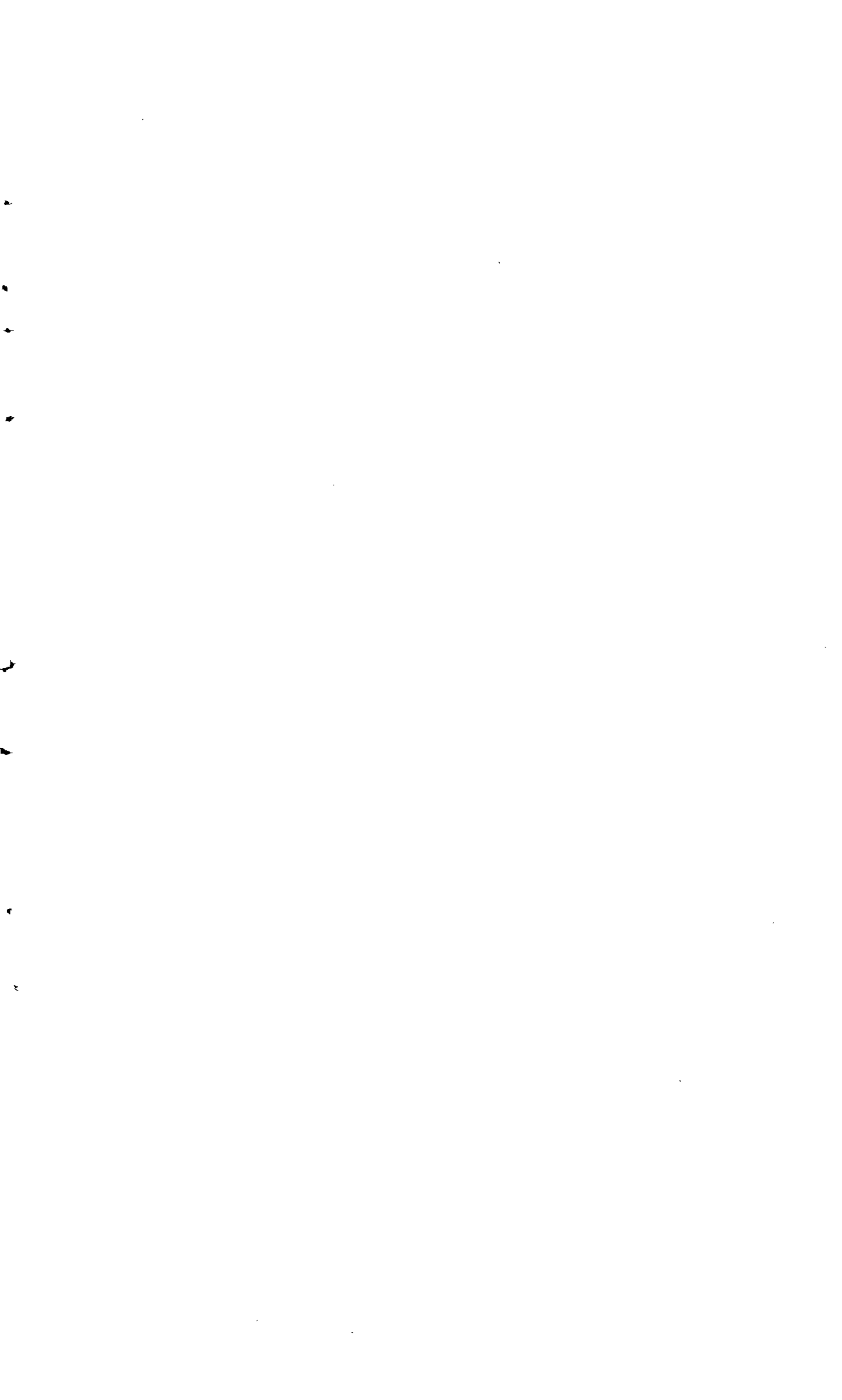
وأين تلك الامة التي تعارض هذا التيار الجارف وتأبى أن تفقد شخصيتها ، ومقومات حياتها ، وتغلب على أمرها ، فتحول هذا التيار وتقلبه رأسا على عقب ، أو تقف فيه كجبل رأس ، أو صخرة صماء ، فيحول التيار مجراه ، ويتخذ طريقا آخر .

ان البطل الذي يمثل قصة الآدمي مع الجني ويفتك به ، هو رجل الساعة ، وبطل الابطال وفتى الفتيان .

وان الامة التي تعارض هذا التيار وتغير مجراه هي امام الامم المبعوثة الى العالم ، فأين ذلك البطل ؟ وأين تلك الامة ؟؟ هل تجيب الامة الاسلامية وهل يجيب العالم العربي على هذا السؤال ؟!.



١ ــ الآية ٤١ من سورة النازعات .



أزمة إيمان وأخلاق [1]

عن أي شيء أتحدث ؟ ان الاحاديث كثيرة ، والشجون كثيرة ، واذا كثرت الاحاديث والمعاني تحير الانسان .

ولكن سأحدثكم عن شيء أومن بـه وأعتقده ، ولن أحاول أن أشبع رغبتكم أو أن أرضي أسماعكم ، بل حسبي أن أرضي نفسي وضميري وايماني ، فاذا أرضيت ضميري أكون قد أرضيتكم .

لن أحدثكم حديثا علميا ولا تاريخيا ، فقد أتخمنا بهذه الاحاديث ، وفيكم من يملؤكم علوما ومعاني وخطابات .

تسمعون الناس يتحدثون عن الازمات والمشكلات ، ــ وهذا العصر هو عصر الازمات والمشكلات ــ يتحدثون عن أزمات اقتصادية ، وأزمات سياسية ، ويتحدثون عن أزمات الحكم وأزمات الاجتماع ، ولكني أعتقد أن هناك أزمة واحدة لا ثانية لها هي أزمة الايمان، أزمة الاخلاق،

---

١ ــ محاضرة ألقيت في مركز جمعية انقاذ فلسطين ببغداد في يوليه سنة ١٩٥٦ .

سيحوا في الارض وشاهدوا الامم والشعوب ، فانكم سترون أن هذه الانسانية ـ بمختلف الشعوب والاقطار في أنحاء العالم كله ـ تعاني أزمة واحدة هي : « آزمة الايمان والاخلاق » هي كارثة الكوارث ، وهي مصيبة المصائب ، وكل مشكلة تحدث الناس عنها ، واشتكوا منها ترجع الى هذه الازمة ، والشيء الوحيد الذي فقد ، وبفقده وقعنا في هذه المصيبة العالمية هو الايمان،والشيء الوحيد الذي اعتل ، وباعتلاله أصبحنا نواجه هذه المشكلات كلها في نطاق الافراد والمجتمعات والحكومات والاوضاع العالمية هو الاخلاق ، ان الناس أشباه ولم يزالوا ، واننا بشر والذين يحكموننا بشر ، ولكن الذي يسيطر على العالم ، هو هذه الازمة الايمانية الاخلاقية ، ان كثيرا من الناس يعتقدون أن الشأن في الحكومات والاحزاب ، فاذا ذهبت وزارة وجاءت أخرى ، واذا ذهب حزب وجاء آخر ، فقد انحلت الازمة وانقشعت المشكلة ، ان هذا حكم خاطيء ومستعجل ، ومبني على قصر النظر ، ليست المسألة مسألة أحزاب أو حكومات ، أو شيء من التعديلات ، ان المسألة مسألة العقلية والاعتقاد ، والنفوس والقلوب ، فلا فائدة في هذه التغيرات ، وان تبدل حزب بآخر أو حكومة بأخرى ، لا يقدم ولا يؤخر ، انالافراد كلهم يلتقون على الخضوع للمادة والاستئثار

وخدمة النفس ، وهذه النفس قد تقصر فتصبح نفسا فردية ، وقد تتسع فتصبح نفسا حزبية أو جماعية ، ان هذه العقلية هي التي تسيطر على العالم كله ، وكل ما نعاني من فساد الاوضاع ، مرده الى فساد هذه النفوس ، وهيمنة هذه العقلية الخاضعة للمادة ، الخادمة للمصلحة ، المستأثرة الانانية .

هذا هو الداء أيها الاخوان ، فلا تخدعوا أنفسكم ، وكلما جردتم النظر ، ونزلتم الى أعماق الحقائق ، فانكم ستجدون أن أصل البلاء هـو شيء واحـد (هو عبـادة النفس) فاذا لم تتغير هذه النفوس التي تعبد المادة ، فلن تتغير هذه الاوضاع أبدا .

ان هذا التنافس الذي تتحدث به الصحف ، والذي قد يؤدي الى حروب طاحنـة ـ تستمر سنين طـوالا تطحن الامم ـ هو تنافس في الاغراض فقط ، لا تنافس بين الخير والشر ، وان هذا الاصطراع القائم بين الامم الاوربية ، ليس معناه أن أمة منها تريد أن تسيطر على العالم لتقضي على هذه الاوضاع الفاسدة ، ولتخـدم الانسانية ، وتنفـذ قوانين الله ، وتحارب الفسـاد ، وتساوي بـين الناس ، وتقيـم القسط والعـدل ، وتأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر ، وتقيم الصلاة وتؤتي الزكاة كما قال الله تعالى : « الذين ان مكناهم في الارض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة،

وأمروا بالمعروف ، ونهوا عن المنكر (١) » ٠

لا يا أيها الاخوان ، انما هو تنافس على القيادة ، كل أمة تريد أن تمتلك الحكم لتنفذ شهواتها ، انما النزاع فيمن يكون صاحب الامر والنهي ، وتكون له قوة ارضاء الشهوات ، وخدمة المصالح الذاتية الحزبية ٠

فبريطانيا وحليفاتها ــ مثلا ــ لم تكن تنازع المعسكر الشيوعي لتقيم القسط والحق ، وكذلك لم يكن المعسكر الشيوعي في وقت من الاوقات لينازع الحلفاء الاوربيين في سبيل اقامة العدل ، لانه لم يكن حريصا على اقامة الدين والفضيلة ، انما يصارع ويحارب ليكون هو المعسكر الوحيد في العالم الذي يهيمن على وسائل وامكانات البشرية ، وليحتكر التجارة العالمية ، ليس لمصلحة البشرية ، بل ليكون الذين يؤمنون بمبادئه وينضمون اليه يسعدون على حساب الامم والشعوب التي يسيطر عليها ٠

ان مرد هذه المصارعات كلها هو شهوة النفس وعبادتها ، وما لم تتغير هذه النفسية الشريرة الفاسدة المتعفنة فلا مطمع في صلاح العالم أو سعادته ورفاهه ٠

المهم أو الاهم ــ أيها الاخوة ــ أن يتغير الانسان ، از

١ ــ الآية ٤١ من سورة الحج ٠

كل شيء في هذا العالم خاضع للانسان ، والانسان خاضع لنفسه وضميره وعقيدته ، فاذا كانت هـذه صالحة كان الانسان صالحا ، واذا صلح الانسان صلح العالم (ألا ان في الجسد مضغة اذا صلحت صلح الجسد كله واذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب [1]) .

لقد أصبح الناس مؤمنين ـ بحكم ما يكتبه ويقوله أناس لم يتعمقوا في العلم ـ بأن صلاح العالم هو في وجود حكومة على أساس كذا وكذا ، أو في تولي الرجل الفلاني، أو الحزب الفلاني الحكم ، وما دروا أن المجتمع فاسد لفساد الضمائر والقلوب،وما لم تصلح فلا يؤمل الصلاح، هذا أيها الاخوان قول مجرب خبير لا قول انسان منطو على نفسه ، قول رجل تهيأ له ـ بحمد الله ـ من الدراسة العميقة الشيء الكثير .

قد يدخل الرجل الى غرفة مظلمة ، فلا يستطيع أن يجد طلبه اذا لم يفتح الزر الكهربائي ، ولكن الرجل الخبير بمجرد دخوله الغرفة يعرف موضع الزر فيفتحه ، فيسري النور في التيار ، ويضيء جنبات الغرفة ، ويقضي الرجل حاجته ، وهذا هو شأن الانبياء عليهم السلام ومن سار على أثرهم ، هذا هو الزر ، هو « الايمان » ، اذا فتح

---

١ ـ حديث صحيح .

انطلقت منه موجة النور لتضيء العالم كله .

اني أرى رجالا في البلاد العربية والاسلامية وغيرها يبدون كبارا في العقل والتفكير والتجربة ، ولكني أستغرب أن « تفكيرهم قاصر غير ناضج » .

يتكلمون عن المشكلات حديث رجل لم يتعمق ولم يرسخ ، يتحدثون عن مشكلات السياسة والاجتماع ، ويعتقدون أنه اذا جاء الحزب الفلاني ذهبت المشكلة ، فاذا جاء الحزب واجهنا نفس المشكلة ، بل ما هو أكبر منها وكثيرا ما نواجه مشكلات جديدة أخرى ، ثم نجرب حزبا آخر ، فاذا هو شر من الاول ،وصدق الشاعر اذ قال:

ألا انما الايام أبناء واحد
وهذي الليالي كلها أخوات
فلا تطلبن من عند يوم وليلة
خلاف الذي مرت به السنوات

الى متى تجري هذه التجارب على الانسان المسكين ؟ والى متى نفحص ونشرح ثم نرجع من غير طائل ؟ ان الانبياء يمنحونا العلم اليقيني ، ويعطونا العلاج الشافي .
ان المسألة مسألة النفوس ، وما دمنا معرضين عن هذه الحقيقة ، فسوف نبقى نعاني مشكلة بعد مشكلة .

ان من مصائب هذه المدنية الاعراض عن الافراد ، فقد أثرت

العلوم العمرانية في النفوس ، حتـى أصبحت تعتمـد على المجموعات ، والمؤسسات ، والهيئات الاجتمـاعية ، والحكومات ، دون الاهتمـــام بالافراد ، مع أن الافراد هم أساس المجتمعات والحكومات والاحزاب والمؤسسات ، نقول لهم : أيها السادة ، دونكم الافراد فأصلحوهم وهيؤهم لهذا الهيكل الاجتماعي ، فسيقولون : مالنا وللافراد ، نحن في عصر اجتماعي طابعه الاجتماع ، فنقول لهم : آمنا بالاجتماع ، ولكن اذا لم يكن الافراد أين يكون المجتمع ؟ ولكنهم يقولون : ان الافراد يصلحون بصلاح المجتمع ؟ ان مثل هؤلاء الذين يهتمون بالمجموعات دون الافراد مثل من يجمع أخشابا نخرة ، متآكلة مخرومة ، يريد أن يعمل منها سفينة تحمل جماعة كبيرة وبضائع ثمينة ، فاذا قال له رجل صاحب نظر : ان هذه الاخشاب لا تصلح لبناء سفينة تحمل جماعة كبيرة وبضائع ثمينة ثقيلة ، قال : ان هذه الاخشاب لا قيمة لها ، انما المهم السفينة ، فاذا تكونت السفينة فقدت الالواح شخصيتها ، فلا يُهمك ان كانت الاخشاب فاسدة منخورة .

ان الفاسد فاسد ولكن اذا اجتمع الفاسد مع الفاسد ينتج الصالح! ان اللص لص ، ولكن اذا اجتمعت اللصوص أصبحت حارسة للمدينة!!

هذه هي عقلية أوربا ـ ان اللصوص لصوص في أفرادهم ،ولكنهم أمناء في مجموعهم ، ما هذا المنطق ؟

الذئب ذئب ، ولكن اذا اجتمعت الذئاب أصبحت راعيـــة ! ان الجمرة تحرق البيت،ولكنها اذا اجتمعت الجمرات أصبحت بردا وسلاما!!

هذا شيء مضحك ، ولكن أليس هذا هو الاساس الذي يعمل في المدرسة والحكومة والمحكمة ؟؟

من أين جاءت الحكومة والقضـــاة والجنود ؟ أليس أكثر هؤلاء فاسدين ودون المستوى الواجب ؟ فكيف تتحول هذه العصابات المجرمة الى مجموعة صالحة ، رفيعة المستوى ، عالية في الاخلاق ؟

العالم كله ـ مع الاسف ـ خاضع لهذا المنطق ، حتى في المستويات العلمية .

ان مدراء البلديات والجامعات ، والمؤسسات العلمية ، والحكام لو كانوا في الزمن الاول لما استحقوا أقل من الطرد ، بل لكانوا في السجون ، ولو أرادوا أن يشغلوا وظيفة حقيرة ما استحقوا .

لقد طغت هذه العقلية على الافكار حتى أصبح الذي يثير مسألة الافراد يتهم بالرجعية .

يا أصحاب القلوب المؤمنة ، أنتم المجتمع ، في قسمات وجوهكم وضمائركم وعقولكم يرقد المستقبل الزاهر الذي نؤمله،فهيئوا نفوسكم تهيئة روحية خلقية، علمية، ايمانية ، هذا هو نداء الوقت ، وواجب الساعة ، وجهاد اليوم .

لقد وجدت الحديث عن العالم الاسلامي حديث كل بلد حللته وزرت فيه اخواننا ، وهو حديث كل مجلس حضرته ، ان العالم الاسلامي حقيقة قائمة تسعى على قدميها ، لا ينكر فضله الا جاهل أو أحمق .

أنا أومن به، وشاهدته في الهند، وباكستان، وتركيا، وسوريا ، ومصر ، وأنتم أيها الاخوان جزء من العالم الاسلامي ، اذا كنتم تعتقدون أنه يعيش بغيركم ، وليس

عليكم مسؤوليته فأنتم مخطئون ، ولكن أخشى أن كثيرا من الناس يهتمون بكل شيء غير نفوسهم ، وهذا هو الواقع فعلا · أنا أفكر في العالم ، ولكن أنا كذلك جزء منه ، فلأصلح هذا الجزء · ولكني أرى كثيرا من اخواني لا يفكرون في نفوسهم ، ويعتقدون أن العالم الاسلامي هو كل ما يغاير نفوسهم ، علينا أن نصلح نفوسنا ، وليعتقد كل منا أنه مسؤول، فاذا صلحت هذه الاجزاء صلح العالم الاسلامي ، ان مثلنا أيها الاخوان ، كمثل ملك أعلن أنه يريد حوضا مملوءا باللبن « الحليب » ، وأنه سيدفع الثمن لكل من يجلب الحليب ، فقال أحد اللبانين : لو أفرغ لبان واحد سطلا من ماء ، فان هذا الماء لا يؤثر في الحليب الكثير ، فأفرغ سطل ماء بدلا من حليب ، وفكر آخر نفس التفكير ، وهكذا سرت الفكرة بين الجميع ، وجاء الملك في الصباح فوجد حوضا من ماء ·

هذه قصتنا · ان كل فرد منا يقول ، اذا فَسَدتُ ، فماذا يضر العالم الاسلامي ؟ وبهذا أصبح كل العالم الاسلامي فاسدا · لو فكرتم لرأيتم أن كل حديثكم عن غيركم ·

أنصفوا نفوسكم أيها الاخوان،وما لكم وهذه القضايا التي لا تستطيعون خدمتها ، ان الاشتغال بالغير سهل ، ولكن الاشتغال بالنفس صعب ، والانسان يحب السهولة،

ولذلك اندفع العالم الاسلامي كله الى الاهتمام بغيره • هذا تفكير يجب أن يعالج •

أنتم العراق ، واذا كنتم العراق ، فأنتم جزء من العالم الاسلامي ، فيجب على كل منا أن يهيىء نفسه ليكون لبنة صالحة في البناء •

لنكن فتية مجاهدة ، مؤمنة صادقة ، طاهرة النفس ، واضحة التفكير ، عميقة الجذور ، قوية العاطفة ، فائضة القلب •

فاذا كنا كذلك ، فصدقوني اننا نستطيع أن نغير تيار الفساد •

الازمة أزمة رجال ، فأين الرجال ؟ وان كثيرا من الناس يحرصون على الحكومات ويعتقدون أنها هي المفتاح ، ولكن الحكومة يسيرها الرجال • فمن هم هؤلاء الرجال ، وكيف هم ؟ هذا هو داء العالم الاسلامي فأنتم هيئوا نفوسكم « لمعركة المستقبل » « معركة الاخلاق » و « الاخلاص والتضحية » ، اذا وجد رجل واحد يستطيع أن ينسى نفسه ومصلحته ، ومصلحة أسرته ، واصدقائه، وحزبه ، ويستهدف مصلحة بلده ، وأمته ، لاستطاع أن يُحدث انقلابا •

كان الجو قاتما ، والعالم الاسلامي يعاني مشكلة

عظيمة ، وكان الولاة جائرين ، والجهاز فاسدا والمظالم سائدة، والحقوق تمتهن، والناس غير آمنين ، وكان العالم الاسلامي من شرقه لغربه ، ومن شماله لجنوبه ، يعاني مرضا مرهقا • جاء رجل واحد هو «عمر بن عبد العزيز» عرف ربه ، ونسي نفسه ، وذكر اليوم الآخر ، فاستطاع أن يغير هذا التيار ، ويرغم العالم الاسلامي على أن يتجه الى الصلاح ، أين الافراد ؟ وأين من ينتجهم ؟ هل تنتجهم الكليات والمعاهد ؟ لا ، انما يربيهم الايمان ، وتنتجهم العقيدة والاخلاق •

فكلمتي لكم ، أن تهيئوا نفوسكم ، ربوا فيها الايمان والعقيدة ، كونوا مؤمنين بالله واليوم الآخر ومصلحة الاسلام ، كونوا رجالا ، اذا دانت لهم البلاد ، وأصبحوا يملكون أزمّة الامور لم يغيرهم الوضع الفاسد عما كانوا عليه ، هذا كان شأن الصحابة ، كانوا ضعفاء فقراء لا يملكون ما يكسون به أجسامهم، ويشبعون به بطونهم، فدانت لهم الدنيا وتفتحت لهم الخزائن فما تغيروا •

بقي أبو عبيدة وسعد كما كانا ، وجاء سلمان الى العراق واليا ، فخرج الناس لاستقباله ، فرأوه يحمل على رأسه حملا لرجل على أجره •

ان العالم لم يفسد الا عندما فسد الافراد ، وفقد هذا الطراز الذي تخرج في مدرسة محمد صلى الله عليه وسلم ، نحن في حاجة الى هذا

الطراز ، وهولا يرتجى الا منكم ، من مثل هذا الشباب المسلم ، المؤمن الصادق الذي يوطن نفسه على الشظف والحياة البسيطة ، ان من أمراض الامة العربية ، هذا التنعم والتبذير ، والعادات القاهرة ، لا يستطيع أحدهم أن يعيش من غير سيارة ، وبيت فخم وراتب ضخم ، ان هــذه الامراض قعدت بأمتنا ، وهذا كان داء الرومان والفرس ، فقد أسرفوا في المدنية والتنعم ، يدل على ذلك أنه لما زحف المســلمون على المدائن وفتحوها ، خرج « يزدجرد » يحمل معه ألف طاه وألف مرب للبزاة والصقور ، ويقول : اني في حالة يرثى لها • أخذت هؤلاء فقط •

الى هذا الحد وصلتمدنيتهم،ولذلك انهارتهذا الانهيار الفظيع• كانالذي يلبس قلنسوةقيمتهادون ٥٠ألفا يعيَّر،وكانوا يلبسون مناطق بقيمة ٣٠ الى ٥٠ ألف ، مرصعة بالجواهر والياقوت ، فهذه المدنية الزائفة هيالتي جنت عليهم، فخسروا الدولة والشرف ، والمجد والحياة•

فهيئوا نفوسكم للجهاد والدعوة ، واذا قلدتم أمانة ، فأحسنوا القيام عليها ، هذه وصيتي لكم ، وربما لا تقيمون وزنا لها ، ولكنكم ستذكرون ذلك في المستقبل ، فستذكرون ما أقول لكم « وأفوض أمري الى الله » •

ان الازمة أزمة رجال ، وأزمة ايمان وأخلاق ، واني أعيذ نفسي أن أومن بالفكرة القاصرة ، القائلة بتغير الوضع ، اذا تغيرت الحكومات والاحزاب ، لقول الله تعالى : « أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا ، وان الله على نصرهم لقدير ، الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق الا أن يقولوا ربنا الله » (الى أن قال) : « الذين ان مكناهم في الارض أقاموا الصلاة ، وآتوا الزكاة ، وأمروا بالمعروف ، ونهوا عن المنكر [1] » •

أنظروا كيف قدم ذكر هذه المحنة ، التي خرجوا منها كما يخرج

---

١ ـ الآية ٤١ من سورة الحج •

الابريز من النار ، وخرجوا من ديارهم بغير حق ، حتى أصبحوا رجالا ان مكنهم الله في الارض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر .

فاذا لم نقطع هذه المرحلة لا نستطيع أن نصل الى الدرجة التي وصفها الله بقوله : « الذين ان مكناهم في الارض » وقال تعالى : « ألم تر الى الذين قيل لهم كفوا أيديكم وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة » لم يحدثهم عن الحكومة ، والنتائج الاخيرة ، ولكن رباهم تربيـــة اسلامية عميقة شاملة للاخلاق والتفــكير ، حتى اذا نشــأت النفوس ، انطلقت الموجة ، وكان ما كان .

أقول وأنا مخلص ناصــح ، اهتموا بأنفســكم اهتماما دينيـــا ، خلقيا ، تربويا ، فكريا ، وآمنوا بأنكم أنتم العالم الاسلامي كما قال الشاعر :

وفيك انطوى العالم الاكبر

واذا صلحنا صلح العالم الاسلامي واذا صلحت الاجزاء صلحت المجموعـــــة .

أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم .



ردة ولا أبا بكر لها [1]

شهد التاريخ الاسلامي حوادث ردة عديدة ، أبرزها وأعنفها ردة القبائل العربية على اثر وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم ، الثورة الكبيرة التي وأدها أبو بكر الصديق في مهدها بايمانه وعزمه الذي ليس له مثيل في التاريخ ، ومنها حركة التنصر التي انتشرت في اسبانيا على اثر جلاء المسلمين ، والتي ظهرت في بعض الاقطار التي استولت عليها الدول الغربية المسيحية ونشط فيها القسس و « الارساليات » ومنها قضايا شاذة من ارتداد بعض ضعاف العقول وصغار النفوس من المسلمين عن دين الاسلام واعتناقهم للبرهمية أو الآرية في الهند ، ولكنها حوادث نادرة جدا ، وفي الحقيقة ان تاريخ المسلمين لا يعرف الردة العامة ـ اذا استثنينا اسبانيا البائسة اذا صح ان نسميها ردة ـ كما اعترف به مؤرخو الديانات .

---

١ ـ مقال كتب افتتاحية لمجلة « المسلمون » وطبع رسالة مفردة ، ونقل الى عدة لغات .

وتتسم هذه الحوادث كلها بسمتين : أولاهما المقت الشديد من المسلمين ، والثانية الانفصال عن المجتمع الاسلامي ، فكان كل من يرتد عن دينه يستهدف لسخط المسلمين الشديد ، وينفصل عن المجتمع الاسلامي الذي يعيش فيه بطبيعة الحال ، وتنقطع بمجرد ارتداده بينه وبين ذوي قرابته الاواصر والارحام ، وكانت الردة انتقالا من مجتمع الى مجتمع، ومن حياة الى حياة ، وكانت الاسرة تقاطعه وتهجره وتقصيه ، فلا مصاهرة ، ولا زواج ، ولا اخاء ، ولا توارث ، وكانت حركات الردة تثير روح المقاومة في المسلمين والمقارنة بين الديانات،والدفاع عن الاسلام ، وكل قطر من أقطار المسلمين ظهرت فيه حوادث الردة تحمس علماء المسلمين ودعاة الاسلام وحملة الاقلام فيه للرد عليها وتتبع أسبابها ، وعرض محاسن الاسلام ومزاياه ، واجتاحت المجتمع الاسلامي موجة عنيفة من السخط والاستنكار والقلق ، وكانت هذه الحوادث المقيمة المقعدة للمسلمين وكانت الحديث العام والشغل الشاغل للعامة فضلا عن الخاصة وأهل الغيرة الدينية ، هذا ما اتسمت به حوادث الردة ، على ندرتها وشذوذها وعلى عدم تأثيرها في الحياة ·

ولكن جرب العالم الاسلامي في العهد الاخير ردة اكتسحت عالم الاسلام من أقصاه الى أقصاه ، وبزت جميع

حركات الردة التي سبقتها في العنف وفي العمــوم ، وفي العمق وفي القوة ، ولم يخل منها قطر ، وقلما خلت منها أسرة من أسر المسلمين ، هي ردة تلت غزو أوربا للشرق الاسلامي ، الغزو السياسي والثقافي ، وهــي أعظم ردة ظهرت في عالم الاسلام وفي تاريــخ الاسلام ، منــذ عهد الرسول صلى الله عليه وسلم الى يوم الناس هذا ٠

ماذا تعني الردة في عرف الاسلام وفي مصطلح الشريعة الاسلامية ؟ هي ابــدال دين بدين ، وعقيدة بعقيــدة ، وانكار ما جاء به الرسول وتواتر عنه وثبت بالضرورة من دين الاسلام ٠

وماذا كان يفعــل المرتد ؟ ينــكر الرســالة المحمدية ــ على صاحبها الصلاة والسلام ــ وينتقل الى المسيحية أو اليهودية أو البرهمية، أو يلحد في الدين وينكر الرسالات والوحي والمعاد ، هذا ما كان يعرفه العالم القديم أو المجتمع القديم من معاني الردة ، وكان كل من يرتد عن دينه يدخل الكنيسة اذا تنصر أو يدخل الهيكل أو معبد الاصنام اذا اعتنق البرهميــة مثلا ، فيعرف ذلك الجميع ، ويصبح شامة بين الناس يشار اليه بالبنان ، ويقطع منه المسلمون الامل ، ولا يكــون ارتداده ــ في غالب الاحوال ــ سرا من الاسرار ٠

حملت أوروبا الى الشرق الفلسفات التي قامت على انكار أسس الدين وانكار القوة المصرفة لهذا العالم ، القوة الواعية التي أخرجت هذا العالم من العدم الى الوجود وبيدها زمام الكون (ألا له الخلق والامر) وعلى انكار عالم الغيب والوحي والنبوءات ، وانكار الشرائع السماوية ، وانكار القيم الروحية والخلقية ، منها ما تبحث في علم الحياة والنشوء والارتقاء ، ومنها ما تتصل بالاخلاق ، ومنها ما تدور حول علم النفس ، ومنها ما موضوعها الاقتصاد والسياسة ، ومهما اختلفت هذه الفلسفات في ألوانها وأهدافها وأسسها ، فانها جميعا تلتقي على النظرية المادية المحضة الى الانسان والى الكون والتعليل المادي لظواهرهما وأفعالهما .

غزت هذه الفلسفات المجتمع الشرقي الاسلامي وتغلغلت في أحشائه وكانت أعظم ديانة ظهرت بعد الاسلام في التاريخ ، أعظمها انتشارا وأعمقها جذورا وأقواها سيطرة على العقول والقلوب ، وأقبل عليها زهرة البلاد الاسلامية وزبدتها عقلا وثقافة ، وأساغتها وهضمتها ودانت بها كما يدين المسلم بالاسلام والمسيحي بالمسيحية بكل معنى الكلمة ، فهي تستميت في سبيلها وتقدس شعارها وتجل قادتها ودعاتها ، وتدعو اليها في أدبها ومؤلفاتها ، وتحتقر كل ما يعارضها من الاديان

والنظم والعقليات وتؤاخي كل من يدين بها ، فأفرادها أمة واحدة وأسرة واحدة ومعسكر واحد .

وما هي هذه الديانة ـ وان أبى أصحابها أن يسموها ديانة ـ ؟ أانكار لفاطر الكون العليم الخبير الذي قدر فهدى،وانكار للمعاد وحشر الاجساد ووجود الجنة والنار والثواب والعقاب ، وانكار النبوءات والرسالات وانكار الشرائع السماوية والحدود الشرعية،وانكار أن الرسول الاعظم هو الذي فرض الله طاعته على جميع الخلق وحصر الهداية والسعادة في اتباعه ، وان الاسلام هو الرسالة الاخيرة الخالدة المتكفلة لجميع السعادات الدنيوية والاخروية ونظام الحياة الامثل الافضل ، وهو الدين الذي لا يقبل الله غيره ولا يسعد العالم سواه ، وانكار أن الدنيا خلقت للانسان وأن الانسان خُلق لله .

هذه ديانة الطبقة المثقفة الممتازة التي تملك زمام الحياة فيأكثر البلدان الاسلامية ، وان لم تكن كلها طبقة واحدة في الايمان بها والتحمس لها ، وفيها ولا شك مؤمنون بالله متدينون بالاسلام ، ولكن سمة هذه الطبقة التي تغلبعليها مع الاسفودياناتأكثر أفرادها ورؤسائها هي الديانة المادية وفلسفة الحياة الغربية التي قامت على الالحاد .

انها ردة ، أعود فأقول : اكتسحت العالم من أقصاه

الى أقصاه وغزت الاسر والبيوتات ، والجامعات والكليات والثانويات والمؤسسات ، فما من أسرة مثقفة ـ الا من عصم ربك ـ الا وفيها من يدين بها أو يحبها أو يجلها ، واذا استنطقته أو خلوت به أو أثرته عرفت أنه لا يؤمن بالله ، أو لا يؤمن بالآخرة ، أو لا يؤمن بالرسول صلى الله عليه وسلم ، أو لا يؤمن بالقرآن الكتاب المعجز الخالد ودستور الحياة ، وأفضلهم من يقول انه لا يفكر في مثل هذه المسائل ولا يهتم بها كبير اهتمام ٠

انها ردة ولكنها لم تلفت المسلمين ، ولم تشغل خاطرهم ، لان صاحبها لا يدخل كنيسة أو هيكلا ولا يعلن ردته وانتقاله من دين الى دين ، ولا تنتبه لها الاسرة فلا تقاطعه ولا تقصيه بل يظل يعيش فيها ويتمتع بحقوقها وقد يسيطر عليها ، ولا ينتبه لها المجتمع فلا يحاسبه ولا يعاتبه ولا يفصله ، بل يظل يعيش فيه ويتمتع بحقوقه وقد يسيطر عليه ٠

انها قضية العالم الاسلامي الكبرى ، انها مشكلة الامة الاسلامية الكبرى ، ردة تنتشر وتغزو المجتمع الاسلامي ثم لا ينتبه لها أحد ، ولا يفزع لها العلماء ورجال الدين ، لقد قالوا قديما : « قضية ولا أبا حسن لها » وأقول : قضية ولا أبا بكر لها ٠

انها قضية لا تطلب حربا ولا تطلب تهييج الرأي العام، ولا تطلب ثورة ، ولا تطلب عنفا ، بل ان العنف يضرها ويهيجها ٠ والاسلام

لا يعرف محاكم التفتيش ولا يعرف الاضطهاد ، انها تطلب عزما وتطلب حكمة ، وتطلب صبرا واحتمالا وتطلب دراسة .

لماذا انتشرت هذه الديانة في الشرق الاسلامي ؟

لماذا استطاعت أن تغزو المسلمين في عقر دارهم ؟

ولماذا استطاعت أن تسيطر على العقول والنفوس هذه السيطرة القوية ؟ ان كل ذلك يطلب التفكير العميق الدقيق والدراسة الواسعة .

ضَعُف العالم الاسلامي في القرن التاسع عشر المسيحي في الدعوة والعقيدة والعقلية والعلم وبدا عليه الاعياء والشيخوخة ، والاسلام لا يعرف الشيخوخة والهرم ، انه جديد كالشمس وقديم كالشمس وشاب كالشمس ، ولكن المسلمين هم الذين شاخوا وضعفوا ، فلا سعة في العلم ولا ابتكار في التفكير والانتاج ، ولا عبقرية في العقل ، ولا حماسة في الدعوة ، ولا عرضا جميلا ومؤثرا للاسلام ومزاياه ورسالته الا النادر القليل .

ولا صلة بالشباب المثقف والتأثير في عقليتهم وهم أمة الغد والجيل المرتجى ، ولا محاولة لاقناعهم بأن الاسلام هو دين الانسانية والرسالة الخالدة ، وأن القرآن هو الكتاب المعجز الخالد الذي لا تنقضي عجائبه ولا تنفد ذخائره ولا تبلى جدته ، وأن الرسول هو المعجزة الكبرى

ورسول الاجيال كلها وامام العهود كلها . وان الشريعة الاسلامية هي الآية في التشريع وهي الصالحة لمسايرة الحياة وقضاء مآربها الصالحة والاشراف عليها ، وان الايمان والعقيدة والاخلاق والقيم الروحية هي أساس المدنية الفاضلة والمجتمع الكريم ، وأن الحضارة الجديدة لا تملك الا الوسائل والآلات ، وأن تعاليم الانبياء هي مصدر العقيدة والخلق والغايات ، ولا مطمع في المدنية الصالحة المتزنة الا بالجمع بين الوسائل والغايات .

وفي هذه الساعة هجمت أوروبا بفلسفاتها التي تعب في تدوينها وتهذيبها كبار الفلاسفة ونوابغ العصر ، وصبغوها بصبغة علمية فلسفية يخيل الى الناظر أنها غاية ما يصل اليها التفكير الانساني ، ومنتهى الدراسات والاختبارات ونتاج العقول البشرية وعصارة التأملات ، وكان فيها ما يقوم على الاختبار والمشاهدة وتصدقه التجربة ، وما يقوم على الافتراض والتحكم والتخييل والتوهم ، وفيها الحق والباطل والعلم والجهل والحقائق الراهنة والتخيلات الشعرية ، وليس الشعر محصورا في النظم والقوافي ، هو في الفلسفة والعلم أيضا .

ووردت هذه الفلسفات مع الفاتحين الاوروبيين فخضعت لها العقول والنفوس البشرية ، وأذعنت لها وقبلتها الطبقة المثقفة في الشرق وفيها من يفهمها وهم القلة

القليلة، وفيها من لا يفهمها وهم الكثرة الكاثرة؛ ولكن كل مؤمن بهـا مسحور بسحرها يرى الظرافـة والكياسة في اعتقادها ويرى ذلك شعار المثقفين الاحرار ٠

وهكذا انتشر الالحاد والارتداد في الاوساط الاسلامية من غير أن ينتبه له الآباء والاساتذة المربون وأهل الغيرة لان أهلهـا لم يقوموا في كنيسة ، ولم يدخلوا في معبـد ولم يسجدوا لصنم ويذبحوا لطاغوت ، وكان ذلك دليل الارتداد والكفر والزندقة في العهد القديم ٠

وكان المارقون القدماء يخرجون من المجتمع الاسلامي وينضمون الى مجتمع الديانة التي يدينون بها جديدا ، ويعلنون عقيدتهم وتحولهم بصراحة وشجاعة، ويحتملون كل ما يخسرونه في سبيل عقيدتهم الجديدة، ولا يلحون على البقاء في المجتمع القديم ليحافظوا على ما كانوا يتمتعون به من حقوق وحظوظ ٠

أما الذي يقطع صلته عن دين الاسلام اليوم فلا يريد أن يقطع صلته عن المجتمع الاسلامي ، مع أن المجتمع الاسلامي هو المجتمع البشري الوحيـد الذي يقـوم على العقيدة ولا يتحقق هذا المجتمع من غير عقيدة ، ويلحون على أن يعيشوا في مراكزهم متمتعين بثقة هذا المجتمع ، متمتعين بالحقوق التي يخولها الاسلام ، ان هـذا وضع شاذ لم يعرفه التاريخ الاسلامي ٠

وهنالك نزعات جاهلية ومبادىء جاهلية حاربها الاسلام بكل وضوح ، وحاربها الرسول بكل قوة ، كالعصبية الجاهلية التي تقوم على وحدة الدم أو الوطن أو الجنس ، وتُمجّد هذه العصبية ويبالغ في تقديسها والدفاع عنها والقتال تحت رايتها وتوزيع المجتمع الانساني على أساسها حتى تصبح ديانة وعقيدة . وتسيطر على العقول والنفوس والارواح والآداب ، ولا شك أنها في عمقها ورسوخها وقوتها وشمولها تنافس الاديان وتستعبد الانسان ، وتحبط مساعي الانبياء وتحدد الدين ـ الذي جاء ليحكم على الحياة ـ في العبادات والطقوس ، وتقسم العالم الانساني الى معسكرات متحاربة والامة التي قال الله عنها : « وان هذه امتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاتقون » في أمم كثيرة .

لقد حارب الرسول هذه العصبية الجاهلية بكل قوة ومن غير هوادة وأنذر منها وسد منافذها ، فلا بقاء للدين العالمي ولا بقاء للامة الواحدة مع هذه العصبيات، ومصادر الشريعة الاسلامية زاخرة بانكارها وتشنيعها ، والنصوص في ذلك أكثر من أن تستقصى ، وهذا الذي يعرف بداهة من الاسلام ، والذي عرف طبيعة الاسلام بل عرف طبيعة الاديان عرف أنها لا تسيغ هذه العصبيات ، ومن درس التاريخ متجردا عن الميول والمذاهب السياسية

عرف أنها لم تزل ولا تـزال من أقوى عوامـل الهـدم والتخريب والافساد والتفريق بين الانسان والانسان ، والمعقول المنتظر من الانسان الذي جاء ليوحـد العـالم ويجمع النوع الانساني تحت راية واحدة وعلى عقيدة واحدة ، ويكوّن مجتمعا جديدا قائما على الدين وعلى الايمان برب العالمين ، ويبسط الامن والسـلام وينشر الحب والوئام بين أعضاء الاسرة الانسـانية ، ويجعلها جسدا واحدا اذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى ، من المعقول جدا من هذا الانسان أن يحارب هذه العصبيات بكل وضوح وصراحـة ويجعلها كلمة باقية في عقبه لعلهم يرجعون .

ولكن العالم الاسلامي أصبح بعد ما غزتـه أوروبا سياسيا وثقافيا يخضع لهذه العصبيات الدموية والجنسية والوطنية ، ويؤمن بهـا كقضية علمية وحقيقـة مقررة وواقع لا مفر منه، وأصبحت شعوبه تندفع اندفاعا غريبا الى احياء هذه العصبيات التي أماتها الاسلام والتغني بها واحياءشعائرها والافتخار بعهدها الذيتقدم علىالاسلام، وهو الذي يلح الاسلام في تسميتـه بالجاهليـة وليس في معجمه تعبير أهول وأفظع منهـا ، ويمن القرآن عـلى المسلمين بالخروج عنها وبحثّهم على شكر هذه النعمـة التي لانعمة أعظم منها : « واذكروا نعمة الله عليكم اذ

كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمتـه اخوانا وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها » «بل الله يمن عليكم أن هداكم للايمان ان كنتم صادقين » « هو الذي ينزل على عبده آيات بينات ليخرجكم من الظلمات الى النور وان الله بكم لرؤوف رحيم » .

والطبيعي من المؤمن أن لا يذكر الجاهلية مهما تقادم عهدها أو قارب الا بمقت وكراهية وامتعاض واقشعرار ، وهل يذكر السجين المعذب الذي أطلق سراحه أيام اعتقاله وتعذيبه وامتهانه الا وعرته قشعريرة وثارت الذكريات الاليمة القاتمة! وهل يذكر البارىء من علة شديدة طويلة أشرف منها على الموت أيام سقمه الا وانكسف باله وامتقع لونه ، وهل يذكر الانسان رؤيا فظيعة مفزعة رآها الا وشكر على أنها حلم زائل وهم راحل ، والجاهلية التي تجمع معاني الجهل والضلالة والبعد عن الحقائق وأنواع الخطر والمضار في الدنيا والآخرة أعظم من كل ذلك ، وجديرة بأن يثير ذكراها المقت الشديد وتحث على الشكر على التخلص منها وانقضاء أيامها؛ ولذلك جاء في الصحيح: « ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الايمان : أن يكون الله ورسوله أحب اليه مما سواهما ، وان يحب المرء لا يحبه الا لله ، وأن يكره أن يعود الى الكفر كما يكره أن يقذف في النار » .

وقد ذم الله شعائر الجاهلية وأبطالها وعظماءها في غير رفق وتحفظ فقال : « وجعلناهم أئمة يدعون الى النار ويوم القيامة لا ينصرون ، وأتبعناهم في هذه الدنيا لعنة ويوم القيامة هم من المقبوحين » ويقول : « وما أمر فرعون برشيد ، يقدُم قومه يوم القيامة فأوردهم النار وبئس الورد المورود ، وأُتبعوا في هذه لعنة ويوم القيامة بئس الرفد المرفود » .

ولكن كثيرا من الاقطار الاسلامية والشعوب الاسلامية ـ بتأثير الفلسفات الغربية والتفكير الغربي وحده ـ أصبحت تمجد عهدها العتيق الذي سبق الاسلام وحضارته وتقاليده ، وتحن اليه ، وتحرص على احياء شعائره وتخليد عظمائه وأبطاله وملوكه وأمجاده ، كأنه عهدها الذهبي وكأنه نعمة حرمها الاسلام اياها ، وفي ذلك من الجحود والنكران للجميل وقلة تقدير نعمة الاسلام وفضل محمد عليه الصلاة والسلام ، وتهوين خطب الكفر والوثنية وما اشتملت عليه الجاهلية من خرافات وضلالات وسفاهات ومُضحكات ومبكيات ما لا يعقل عن مسلم واع ، وما يخاف معه الحرمان من نعمة الاسلام وسلب الايمان والتعرض لسخط الله الشديد وقد قال :

« ولا تركنوا الى الذين ظلموا فتمسكم النار وما لكم من دون الله من أولياء ثم لا تنصرون » .

زد الى ذلك ما يوجد في العالم الاسلامي اليوم من التهور في الحصول على المادة وايثارها على كل مبدأ وعقيدة ، وايثار الدنيا على الآخرة ، والاخلاد الى الارض واتباع الهوى ، وما تبع ذلك من التفسخ والاستهانة بمحارم الله وشيوع الخمر والفسوق في الطبقات الراقية ، حتى تكاد تكون هذه الطبقة نسخة واحدة وصورة واحدة في كل بلد اسلامي الا من عصم ربك وقليل ما هم ، والتحرر من قيود الاسلام وفرائضه تحررا تاما حتى كأنها لا صلة لها بالاسلام وشريعته ، وكأنها شريعة منسوخة وأسطورة خيالية .

هذا تصوير العالم الاسلامي الديني والاعتقادي بالاجمال ، وهي موجة جاهلية تكتسح العالم الاسلامي من أقصاه الى أقصاه ، وهي أعظم موجة واجهها العالم الاسلامي في تاريخه الطويل ، وهي تفوق كل موجة معارضة عرفها التاريخ الاسلامي سواءا في قوتها وفي شمولها وفي تأثيرها في المجتمع الاسلامي ، وتمتاز عنها بأن المنتبهين لهذه الاخيرة قلائل ، والذين ينقطعون الى محاربتها ويجندون لها قواهم ومواهبهم أقل ، فقد حدث الالحاد وظهرت الزندقة بتأثير الفلسفة اليونانية في العهد القديم فوجد من يحاربها بعقله الكبير وذكائه النادر وعلمه الغزير ودراسته الواسعة وشخصيته القوية ، وظهرت الباطنية والملاحدة فوجد من يحاربها بالعلم والحكمة والبرهان وبقي الاسلام محتفظا بنفوذه العقلي ومكانته العلمية ترتد عنه كل موجة عاتية ، وينحسر عن طوده كل فيضان وكل سيل جارف .

ليست المسألة مسألة انحطاط في الاخلاق ، وضعف في العبادات، وترك

للشعائر ، وتقليد للاجانب ، وان كانت مسائل تستحق العناية والجهاد، ولكن مسألة العالم الاسلامي اليوم أعظم وأضخم من كل ذلك ، انها مسألة كفر وايمان ، انها مسألة بقاء على الاسلام وخلع له ، ان المعركة قائمة بين الفلسفة الغربية اللادينية وبين الاسلام آخر الرسالات ، وبين المادية والشرائع السماوية،ولعلها آخر معركةتقوم بين الدين واللادينية وانها تحدد مصير العالم .

ان جهاد اليوم وان خلافة النبوة وان أعظم القربات وأفضل العبادات أن تقاوم هذه الموجة اللادينية التي تجتاح العالم الاسلامي وتغزو عقوله ومراكزه ، وأن تعاد الثقة المفقودة الى نفوس الشباب والطبقات المثقفة بمبادىءالاسلام وعقائده وحقائقه ونظمه ، وبالرسالة المحمدية ، وأن يزال القلق الفكري والاضطراب النفسي اللذان يساوران الشباب المثقف ، وأن يقنعوا بالاسلام عقليا وثقافيا ، وأن تحارب المبادىء الجاهلية التي رسخت في النفوس وسيطرت على العقول علميا وعقليا،وأن يحل محلها المبادىءالاسلاميةباقتناع وايمان وحماسة.

لقد مضى علينا قرن كامل وأوروبا تغتصب شبابنا وعقولنا ، وتنبت في عقولنا الشك والالحاد والنفاق وعدم الثقة بالحقائق الايمانية والغيبية ، والايمان بالفلسفات الجديدة الاقتصادية والسياسية ، ونحن معرضون عن مقاومتها ومعتمدون على ما عندنا من تراث ، مضربون عن الانتاج الجديد ، معرضون عن فلسفاتها ونظمها ومحاسبتها محاسبة علمية،ونقدها وتشريحها كتشريح الاطباء الجراحين ، متعللون بالبحوث السطحية المستعجلة وبالزيادة في ثروتنا العلمية القديمة ؛ حتى فوجئنا في العصر الاخير بانهيار العالم الاسلامي في الايمان والعقيدة،وملك زمام الامور في البلاد الاسلامية ، جيل لا يؤمن بمبادىء الاسلام وعقيدته ، ولا يتحمس لها ولا تربطه بالشعب المسلم المؤمن البريء الا « القومية الاسلامية » أو المصالح السياسية .

وبدأت هـذه العقلية أو النفسية اللادينيـة تتسرب عن طريق الادب والثقافة والصحافة والسياسة الى الجماهير؛ حتى أصبحت الشعوب الاسلامية ـ وفيها كل خير وكل صلاح وكل استعداد وهي من أصلح الكتل البشرية في العالم ـ خاضعة لهذه الطبقة بحكم ثقافتها وذكائها ونفوذها ، واذا بقي هذا الوضع تسرب الالحاد والفساد الى هذه الشعوب والى الطبقات التي تعيش في البادية والقرى وتعمل في المصـانع والمزارع وصارت في طريق اللادينية والزندقة ، هذا ما وقع في أوروبا وهو واقع في الشرق اذا جرت الامور مجراها الطبيعي ولم تحل ارادة الله القاهرة .

ان العالم الاسلامي في حاجة شديدة الى دعوة اسلامية جديدة وان هتاف الدعاة والعاملين فيه وهدفهم اليوم « الى الاسلام من جديد » ، ولا يكفي الهتاف ، انه لا بد من تصميم حكيم قبل العمل ، لا بد من تفكير هادئ عميق كيف نرد الطبقة المثقفة التي تحتكر الحياة وتملك الزمام الى الاسلام من جديد ، وكيف نبعث فيها الايمان والثقة بالاسلام ، وكيف نحررها من رق الفلسفات الغربية والحضـارة العصرية ونظرياتهـا اللادينية .

انه في حاجة الى رجال ينقطعون الى هذه الدعوة ويكرسون عليها علمهم ومواهبهم وكفايتهم ، ولا يطمعون في منصب أو جاه أو وظيفة أو حكومة ولا يحملون لاحد حقدا ، ينفعون ولا ينتفعون ، ويعطون ولا يأخذون ، ولا يزاحمون طبقة في شيء تحرص عليه وتتهالك ، حتى لا تكون لها حجة عليهم ولا للشيطان سبيل اليهـم ، شعارهم الاخـلاص والتجـرد عن الشهوات والانانيات والعصبيات .

ان العالم الاسلامي في حاجة الى منظمات علمية تهدف الى انتاج الادب الاسلامي القوي الجديد الذي يعيد الشباب المثقف الى الاسلام بمعناه الواسع من جديد ، ويحررهم من رق الفلسفات الغربية التي آمن بها كثير منهم بوعي ودراسة وأكثرهم بتقليد وتسليم ، ويقيم في

عقولهم أسس الاسلام من جديد ، ويغـذي عقولهم وقلوبهم ، انــه في حاجة الى رجال في كل ناحيــة من نواحي عالم الاسلام عاكفــين على هذا الجهـــاد •

انني لم أكن في فترة من فترات حيـــاتي ممــن يقول بفصل الدين عن السياسة وممن يفسر الدين تفسيرا لا يتصادم مـــع وضع ـ مهما انحرف وشذ عن الاسلام ـ وينسجم مع كل مجتمع ولا ممن يعتبر السياسة « الشجرة الملعونة في القرآن » بل أنا في مقدمـــة من يدعو الى ايجاد الوعي السياسي الصحيح في الشعوب الاسلامية وايجاد القيادة الصالحة ، وممن يعتقد أن المجتمع الديني لا يقوم الا بالملك الديني الصحيح والحكم الصالح المؤسس على أسس الاسلام ، ولا أزال أدعو الى ذلك حتى ألقى الله ، انما المسألة مسألة ترتيب وتقديم وتأخير ، وما تقتضيه حكمة الدين وفقهه ، وما تفرضه الاوضاع •

انا بذلنا جهودنا ومواهبنـــا وما أوتينـــا من فرص ووسائل في حركات سياسية وتنظيمية، وكان كل ذلك على أساس أن الشعب مؤمن وأن من يقــوده ويملك زمامه ـ وهي الطبقة المثقفة لا محالة ـ مؤمن مقتنع بالاسلام وعقيدته ومبادئه، متحمس للاسلام وعلوه ونفاذ حدوده، واذا الامر بالضد ، واذا الشعب قــد ضعف في ايمـــانه وانحط في اخلاقه من حيث لم نشعر ، ولم يشعر ، واذا الطبقة المثقفة ذابت في أكثر أفرادها العقيدة الاسلامية وتبخرت بتأثير فلسفات الغرب وسياسته ونفوذه ، وكثير من أفرادها ثائر على العقيدة الاسلامية مؤمن بالفلسفات

الغربية وما جاءت به من عقائد وافكار تصادم الدين وينتصر لها ويتحمس لها، ويحرص على نشرها وتنفيذها، ويريد أن ينظم الحياة على أساسها وفي ضوئها ، ويصل بالشعب اليها ، فمنهم مسرع متهور ، ومنهم حكيم متدرج ، ومنهم منفذ بالقوة يفرضها على الشعب فرضا ، ومنهم هادئ يزينها للشعب ، والهدف واحد والغاية واحدة .

ورجال الدين ـ ان صح هذا التعبير اذ ليس في الاسلام الكهنوت والطبقة الدينية الممتازة ـ في ذلك فريقان : فريق يحارب هذه الطبقة حربا شعواء ويكفرها ويبتعد عنها، ويعرض عن تتبع أسباب هذا الاتجاه اللاديني وعن ثقافتها ، ولا يعنى باصلاح الاحوال وتغيير هذا الاتجاه المعارض والمحارب للاسلام، بالاختلاط بها وازالة الوحشة والنفور عن الدين وعن رجال الدين ، وتشجيع ما عندها من خير وذرة ايمان وتغذيتها بالادب الاسلامي الصالح المؤثر ، وبالزهد فيما عندها من حياة أو مال وقوة وسلطان ، وتقديم النصح الخالص والتوجيه الحكيم .

وفريق يتعاون معها ويساهمها في المنافع والخيرات وينتفع بها في دنياه من غير أن ينفعها في دينها ، فلا دعوة ولا عقيدة ولا غيرة على الدين ، ولا حرص على الاصلاح ، ولا رسالة لها في هذا القرب والتعاون .

والفريق الثالث ـ الذي يتألم بهذا الوضع ويتوجع له ، ويعترف بأن هذه الطبقة مريضة صالحة للتداوي مستعدة للشفاء ، ويتقدم اليها بالدعوة الرفيقة والرسالة الحكيمة والنصيحة الخالصة ـ يكاد يكون مفقودا ، فلا صلة لهذه الطبقة بالدين وبالجو الديني ، تعيش في عزلة عنه وفي وحشة منه ،ولا تزداد الا بعدا عن الدين وازدراءا بكل ما يتصل به ، ويزيدها الفريق الذي يحاربها حربا شعواء لا هوادة فيها ، والفريق الذي يتزعم الدين ويريد أن ينزع منها الحكم وينافسها في الجاه والمنصب ،لا يزيدها الفريقان الا بغضا للدين واشفاقا منه ، والانسان مفطور على بغض من ينافسه في دنياه ،اذا كان لا يؤمن الا بالدنيا ، وينتزع منه الحكم والسلطان اذا كان لا يعيش الا على الحكم والسلطان ، ويساهمه في مادته وشهواته اذا كان لا يعرف الا المادة والشهوات ٠

والاقطار الاسلامية اليوم بحاجة الى فريق يتجرد عن المطامع ويخلص للدعوة،ويبتعد عن كل ما يوهم بأن همه الدنيا والمادة والتغلب على الحكومة لنفسه أو عشيرته أو حزبه ، يحل العقد النفسية والعقلية التي أحدثتها الثقافة الغربية أو أخطاء « رجال الدين » أو سوء التفاهم أو قلة الدراسة والابتعاد عن الاسلام وجوه،وذلك بالمقابلات والصداقات والمحادثات والمراسلات والرحلات ، وبالادب الاسلامي الصالح المؤثر وبالروابط الشخصية ، وبالنزاهة وعلو الاخلاق وقوة الشخصية والزهد في حطام الدنيا والعزوف عن الشهوات وتمثيل أخلاق الانبياء وخلفائهم٠

هذا هو الفريق الذي خدم الاسلام في كل عصر،واليه يرجع الفضل في تغيير اتجاه دولة بني أمية وظهور خامس الخلفاء الراشدين«عمر بن عبد العزيز»ونجاحه،وقد أعيد هذا التاريخ في عصر الملك المغولي الاكبر جلال الدين أكبر الذي ثار على الاسلام وصمم على تحويل هذه القارة الاسلامية الواسعة (الهند) التي عاشت في الحكم الاسلامي أربعة قرون، جاهلية برهمية ، ولكن بفضل هذه الدعوة الحكيمة وبظهور داعية اسلامي مجدد وشخصية اسلامية حكيمة [1] أخلصت للاسلام وأحسن فقهه وفقه الدعوة ، وبتأثير تلاميذه عادت الهند الى الاسلام أقوى وأفضل ، وتوالى على عرش « أكبر » ملوك يتدرجون في الصلاح وحب الاسلام حتى جاء على العرش ملك يتجمل تاريخ الاسلام وتاريخ الاصلاح بذكره وحديثه [2] .

انها فريضة لا تحتمل التأخير ولا تأخير يوم واحد ، فالعالم الاسلامي يواجه اليوم موجة ردة عنيفة منتشرة في أعز أبنائه وأقوى أجزائه ، انها ثورة على أعز ما يملك من عقيدة وخلق وقيم ، ولا بقاء للعالم الاسلامي بعد ضياع هذه الثروة التي خلفها الرسول وتوارثتها الاجيال وجاهد في سبيلها أبطال الاسلام .

فليكن الموضوع موضع دراسة واهتمام لجميع من يهمهم أمر الاسلام .

---

١ ــ هو العالم الرباني المجدد الكبير الشيخ أحمد بن عبد الاحد السرهندي المتوفى عام ١٠٣٤ هـ .

٢ ــ هو الملك الفاضل الصالح القوي الامين«محيي الدين اورنكزيب» المشهور « بعالمكير » الذي تنسب اليه « الفتاوى الهندية » المتوفى عام ١١١٨ هـ .

فهرست